الفصل السابع

فيصل بن سعود

obeikandl.com

صفحة بيضاء

obeikandl.com

فيصل بن سعود

كانت فترة حكم الإمام «تركي» القصيرة الأجل على درجة بالغة من الأهمية في استعادة بعض أملاك الحكم السعودي واستعادة هيبة أسرة «آل سعود»، وكان باستطاعة الأمير «تركي» على الأقل أن يعيد إصلاح الأسس التي نهضت عليها الدولة والأسرة الحاكمة (على مدى نصف قرن قبل حلول كارثة الدرعية)، والتي تعاظمت إلى أن أصبحت إمبراطورية لم تعرف الصحراء العربية مثيلاً لها منذ العهود التي سبقت ظهور الدين الإسلامي، وكان بإمكان «آل سعود» على هذه الأسس - كما صنعوا بالفعل - أن ينهضوا من جديد ليأخذوا مكانتهم في عالم معاصر. تجاوزت تلك النهضة أحلام وتوقعات الإمام «تركي» ومعاصريه، وفي مضمار هذا التطور واستعادة الأمجاد كان لا بد من التعصر أحياناً والتقدم أحياناً أخرى، إلا أنه من العدل أن نقول إنه لولا صبر ومثابرة الإمام «تركي» في إعادة بناء الأنقاض التي ورثها من آبائه لما حظيت المملكة العربية السعودية على عهد ابن حفيده بما هي عليه.

إذا كان قدر لأي إنسان أن يقوم بذلك الدور لكان ذلك الإنسان هو الإمام «تركي». إذ ألبس عند ولادته اللون الأرجواني وهو لون يرمز للسلطة والمنزلة الرفيعة دون أن يتوقع له أي أحد أنه سيصبح حاكماً، إلا أن الوضع الملح للبلاد وحاجتها إلى قائد يتولى قيادتها، فرضت عليه أن يتسلم زمام الحكم في وقت فشل فيه أشخاص آخرون في كل محاولاتهم ومنصبهم للفوز بالحكم ومن بينهم أشخاص كان الإمام «تركي» بنفسه راغباً في خدمتهم.

لا بد أن الإمام «تركي» كان طاعناً في السن عندما نالت يد الغدر منه، إذ لا تتوافر أية معلومات تاريخية تحدد تاريخ ولادته والذي لا يمكن إلا أن يقدر تقديراً، وما هو موثق في السجلات التاريخية أن الإمام «تركي» لعب دوراً جديراً بالاعتبار - كما لعبه العديد من أبناء أسرة آل سعود - في الدفاع عن الدرعية ضد مطامع «إبراهيم باشا»، كما أن الدور الذي قام به ابنه «فهد» الذي قتل أثناء المعارك جدير بالاعتبار أيضاً، ولا ننسى دور ابنه الآخر الأمير «فيصل» الذي خلف أباه في الحكم وشارك في تلك المعارك. والجدير بالذكر هنا أن ثلاثة من إخوانه وهم: زيد ومحمد وسعود شاركوا أيضاً في الدفاع عن عاصمتهم، واستشهد محمد وسعود وهما يناضلان في ساحات المعارك.

والحقيقة أنه ليس للإمام «تركي» أي ذكر في النشاطات والأعمال التي قام بها الإمام «عبد العزيز الأول» و «سعود الأول»، غير أن السجلات التاريخية تشير فقط إلى أنه كان من بين أبناء والده «عبد الله بن محمد» وكان يحضر مع أولاده وباستمرار كل جلسات ومحافل «سعود». ويعود أول ظهور له في تاريخ الأحداث السعودية إلى عام ١٧٤٦ عندما شارك في حملة لفك الحصار عن «منفوحة» المحاصرة من قبل «دهام بن دواس» حاكم منطقة الرياض آنذاك. ومنذ ذلك التاريخ تكرر ذكر اسمه كقائد لعدة حملات قام بها نيابة عن والده «محمد» وعن أخيه المشهور «عبد العزيز الأول»، وقد استمرت أعماله تلك حتى عام ١٨٠٣، حيث كان في مسجد «طريف» يصلي صلاة الجمعة إلى جانب أخيه «عبد العزيز الأول» فقام أحد رجال

الشيعة المتعصبين باغتياله انتقاماً لانتهاك قدسية «كربلاء»[1]. ونعرف حق المعرفة أنه عاش كامل فترة حكم ابن أخيه «سعود» التي دامت لمدة إحدى عشر عاماً. وبالرغم من أن تاريخ وفاته غير مذكور في أية وثيقة تاريخية، لكن لا بد أن وفاته حدثت قبل عام ١٨١٤ ولنقل في عام ١٨١٢، وبذلك نعطيه فترة ستة وستين عاما من تاريخ حملة عام ١٧٤٦، إذ من المعقول أن نفترض أيضاً أن عمره في تلك الحملة كان على الأقل عشرين عاماً، وعليه يمكن أن يكون قد وصل سن السادسة والثمانين عندما داهمته المنية. وبناءً على هذا التحليل يمكن القول إن أخاه «عبد العزيز الأول» ولد في عام ١٧٢١ وأن ابنه الأكبر وريثه في الحكم «سعود» ولد في عام ١٧٤٨، عليه يمكن القول أن «عبد العزيز» بلغ من العمر ٨٢ عاماً عندما اغتيل في عام ١٨٠٣، وكان عمر «سعود» عندما تولى السلطة من بعده ستة وستين عاماً وكان قد بلغ من العمر عند وفاته ستة وستين عاماً، وليس هناك فرق كبير في السن بين أبناء العم «سعود» و «تركي»، إذ لم يكن عمر «تركي» أقل من ثمانين عاماً عندما اغتيل في عام ١٨٣٤.

من المعلوم أن ابنه الأكبر ووريثه في الحكم «فيصل» كان قد شارك في معارك الدرعية، والمعروف عنه أيضاً أنه رافق الأمير «سعود» في حملته التي شنها عام ١٨٠٣ والتي أسفرت عن ضم «مكة»، ولم يكن عمر «فيصل» في تلك الحملة أكثر من خمسة عشر عاماً، ولهذا يمكن القول إنه كان في

((١) المقصود بالقدسية قدسية خاصة عند الشيعة فقط. أما الإمام عبد العزيز ورجاله فهم حين قاموا أعمالهم في كربلاء كانوا يرون أن ما في كربلاء من قباب على القبور وغير ذلك إنما هو من المظاهر الشركية التي يجب العمل على إزالتها وتصحيح المعتقدات من الإيمان والتعلق بها (المعلق).

الأربعينيات من عمره عندما تولى الحكم، وكان قد تجاوز السبعين عندما مات في عام ١٨٦٥ . إن التعمير أو طول عمر حكام «آل سعود» هو في الواقع ظاهرة متميزة، إذ غطت على مدى فترة ٣٠٠ عام ثمانية أجيال من تلك العائلة بدءًا من مولد «محمد بن مقرن» الذي حدث تقريباً عام ١٦٤٠ . والجدير بالذكر أن «محمد بن مقرن» هو والد «سعود» الذي تسمى الأسرة تبعاً لاسمه، وتفصل فترة مائة عام بين مولد «سعود» وبين موت أكبر أبنائه ووريثه «محمد»، وهناك فترة تزيد على مائة عام انقضت بين تاريخ مولد والد الملك الراحل «عبد الرحمن» والتي حدثت عام ١٨٥٠ ووفاته (أي الملك عبدالعزيز» عام ١٩٥٣ .

لم يتمكن الأمير «تركي» من الوصول إلى الحدود الإقليمية التي فتحها وخسرها سلفه، إذ لم يكن مقدراً لمنطقة الحجاز أن تعود إلى الحظيرة السعودية إلا بعد مضي قرن من الزمن تقريباً .

ومن الناحية الأخرى تمكنت أسرة «آل سعود» من إخضاع إقليم «الأحساء» كما استعاد الحكم السعودي سلطته على منطقة «عُمان» التي لم تخسرها أسرة «آل سعود» بشكل كامل في أي وقت من الأوقات . كان «جبل شمر» و «وادي الدواسر» يشكلان الحدود الشمالية والجنوبية للمنطقة الوسطى، بينما كانت الواحات في المناطق الغربية (بيشة، ورنيه، والخرمة، وتربة وخيبر وتيماء) مرتبطة بحكم «آل سعود» بروابط ليست على نفس القدر من القوة . تمكن الأمير «تركي» ضمن هذه الحدود من أن يوجد الأمن والنظام على نحو ملحوظ في مناطق القبائل ومناطق الحضر على حد سواء . وعمل ذلك بالرغم من أن القصائد الشعرية التي نظمها المؤرخون في وصف

الأحوال السائدة في زمن حكمه قللت من تقدير الأصول والموجودات التي آلت إلى الأمير «فيصل».

تقدم الوثائق التاريخية الأمير «فيصل» على أنه رجل متدين يميل للزهد والتعبد والجد، كما تقدمه لنا على أنه مطلع ومتمكن من الأمور الدينية وحافظ للقرآن عن ظهر قلب، إذ كان يقضي الليل في التعبد والصلاة والتهجد طالباً العون من الله على مصاعب هذه الحياة.

ويعلق المؤرخ «ابن بشر» على صفات الأمير «فيصل» بقوله إنه عانى مشكلات ومصائب في حياته، كما واجه من الأخطار ما يمكن أن يوقع الكآبة واليأس في نفس أي إنسان تقي عالم، ناهيك عن الأمراء والحكام. لقد بدا من الواضح ومنذ اللحظة الأولى لتسلمه زمام الحكم أن فترة حكمه ستكون هادئة ومزدهرة، ولم يكن هناك أدنى شك في أن إخلاصه للدين الإسلامي ولبلاده ولشعبه لم يكن أقل من إخلاص والده لهذه الأمور.

عندما عاد «فيصل» إلى «نجد» عام ١٨٢٨ كان قد قضى في سجن الأتراك (العثمانيين) في مصر سنوات عدة. ويمكن النظر إلى حقيقة هروبه من السجن ليلتحق بوالده على أنها ظاهرة إصرار وعزيمة زرعت في نفسه حب المحافظة على بلاده حرة من أي سيطرة أجنبية أو تدخل خارجي. كان «فيصل» خلال السنوات الست التي تلت ذلك الحدث ساعد والده الأيمن في إعادة بناء واستقرار الحكم إذ لعب دوراً هاماً في استعادة إقليم «الأحساء» الذي اعتمد اقتصاد البلد عليه لدرجة كبيرة، ولم يسفر توليه المفاجئ للسلطة عن أي انقطاع في إنجاز الأمور الملقاة على عاتقه، ومع ذلك لم يكن مقدراً له أن ينعم بفترة خكم خالية من الأحداث.

لم تحدث المشكلات في السنوات الأخيرة من حياة فيصل إلا في الجزء الأخير من عام ١٨٣٤ عندما تسلم زمام الحكم واستهل فترة حكمه بمؤتمر دام عل مدى شهر كامل عقده في الرياض وشارك فيه كبار رجال الدين في الحكم. بما فيهم اثنان من أحفاد الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» وهما «علي وعبد الرحمن»، وكلاهما ابني «حسين». كان «محمد» في تلك الفترة قاضي «الحوطة» في حين كان «عبد الوهاب» قاضي «الخرج»، وتبع ذلك المؤتمر سلسلة من زيارات التهنئة التي قام بها وجهاء الأهالي من عدة مناطق ليبايعوا الأمير «فيصل» وليعربوا عن ولائهم له. وبعد انقضاء هذه الرسميات أرسل «فيصل» جباة الزكاة إلى كل مكان في شرق البلاد وغربها وشمالها وجنوبها، وأمرهم بجمعها لصالح خزينة الدولة.

نقل أحد جباة الزكاة الذي كان الأمير «فيصل» قد أرسله إلى الجنوب أخبار النزاعات الداخلية في «وادي الدواسر» وفي منطقة «الأفلاج»، و على الفور أرسل الأمير «فيصل» حملة عسكرية إلى هناك ليستعيد النظام والاستقرار إلى تلك المناطق. وتصادف في تلك الأثناء أيضا أن قام «فيصل» وهو في طريقه إلى معسكره بالقرب من «الطوير» بتأديب مجموعة من قبائل «الدواسر» كانت تقضي فترة الشتاء في صحراء «العرمة». حدد «فيصل» ذلك المعسكر ليكون نقطة لقاء تتجمع فيه فرق القبائل والأهالي المشاركة في قواته الإقليمية. توجه بعد ذلك لقضاء فترة استراحة طويلة في منطقة «الشعراء» الواقعة في أعالي «نجد»، وهناك ركز اهتمامه على احتياجات الأهالي الدينية، وأمرهم بحضور دروس التوعية الدينية بعد صلاة العصر من كل يوم؛ ولم يجعله ذلك يهمل احتياجات خزينة الدولة من الأمور

الدنيوية، لذلك حث جباة الزكاة على العمل بجد والمثابرة على جمعها.

وفي حلول عام ١٨٣٥ يبدر أن «فيصل» جلب بعض المتاعب لنفسه من جراء اتخاذه قراراً بمكافأة صديقه الحميم «عبد الله بن علي بن رشيد» الذي كان يعتبر من المؤيدين البواسل الذين أسهموا في إخماد فتنة «مشاري»، إذ قرر تعيينه حاكماً على «جبل شمر» على حساب «صالح بن عبد المحسن بن علي» الذي كان يمثل في ذلك الوقت السلالة الحاكمة في منطقة «حائل».

أرسل الأمير «فيصل» مع «عبد الله بن رشيد» أحد كبار المشايخ ليفقه الناس هناك بالمبادئ السليمة للعقيدة الإسلامية، وبعد عدة أشهر من رحيله نشبت المشكلات في منطقة «حائل» وبدأت بين جماعات من المصلين في مسجدين رئيسيين بعد صلاة الجمعة إثر شجار عنيف دار بينهم وبين رجال الزعيم الجديد الذي أرسله «فيصل» كحاكم على تلك المنطقة، وانتهت تلك المشكلات بهروب الحاكم المخلوع وكل أسرته إلى «القصيم». وصلت هذه الأخبار إلى «فيصل» فأرسل أوامره إلى سلطات «القصيم» باعتقال كل الفارين، فنفذت سلطات «القصيم» ذلك الأمر، في حين تمكن البعض الآخر من الهروب إلى «الدمينة»، وبقي «عبد الله» زعيماً على منطقة «جبل شمر» دون منازع وتابع للدولة السعودية، وقد تبعه في لعب الدور نفسه (مع مرور الزمن) اثنان من أبنائه، لكن ابنه الثالث ويدعى «محمد» كان مقدراً له ليس الاستقلال الكلي عن الرياض فحسب، بل صهر الحكم السعودي ضمن بوتقته الشخصية حتى نهاية ذلك القرن.

في تلك الأثناء كانت القوات التركية في منطقة الحجاز تحت إمرة «أحمد باشا»، وبدعم من قبل شريف مكة «محمد بن عون» حاولوا إخضاع إقليم

«عسير» لسيطرتهم، إلا أن أعمال الابتزاز والاغتصاب للأملاك التي كان يمارسها الجيش التركي (العثماني) الكبير الذي أرسل لذلك الغرض ولدت ردة فعل قوية بين قبائل مناطق عسير، الأمر الذي جعلهم يتحدوا ويهاجموا الأتراك ويوقعوا فيهم هزيمة نكراء، ولم يفلت من القوات التركية (العثمانية) سوى قوة صغيرة تمكنت من الهرب إلى مكة وكان من بينها «الباشا» وشريف تلك المنطقة. وفي صيف عام ١٨٣٥ استدعى «محمد باشا» كلاً من الباشا والشريف إلى مصر ووضع الشريف في السجن. وهنا تجدر الإشارة إلى أنه قام بذلك إما بسبب فشلهما أو لأنه شك في أن الشريف لم يكن يقوم بدور التابع المخلص للحكم العثماني.

أرسل زعماء مناطق «عسير» الكثير من الغنائم التي استولوا عليها من القوات التركية (العثمانية) إلى الأمير «فيصل» لتكون دليلاً لتضامنهم مع قضيته. ومما لا شك فيه أن «محمد علي» خطط في تلك الأثناء لمحاسبة الأمير «فيصل»، فأرسل إليه «دوسري بن عبد الوهاب أبو نقطة» الذي كان سجيناً في مصر منذ «أيام الدرعية»، وطلب منه أن يخبر الأمير «فيصل» بأن عليه أن يدفع الجزية إلى «محمد علي باشا». رد «فيصل» على ذلك بأن أرسل إلى «أحمد باشا» في مكة هدايا قيمة حملها إليه أخوه «جلوي» الذي لم يبلغ من العمر في ذلك الوقت سوى خمسة أو ستة عشر عاماً، وذلك لأنه ولد خلال وجود والده في المنفى بعد هربه من الدرعية. مكث «جلوي» في مكة ليؤدي فريضة الحج في شهر نيسان من عام ١٨٣٦ وعاد إلى أخيه «فيصل» الذي كان يخيم في معسكره الربيعي في «روضة التنهاة» الواقعة على الطرف الغربي من «الدهناء». وكان «فيصل» مشغولاً في جمع الزكاة وإحلال الأمن والأمان

والنظام في الصحراء، ومن المحتمل أيضا أن يكون قد استقبل أبناء شيخ البحرين «عبد الله بن خليفة» في ذلك المكان نظراً لأنه سبق له أن زار ساحل الخليج ليحظى بمبايعة حكام «القطيف» و«سيهات» له.

وعند عودته إلى الرياض أرسل أحد عبيده إلى «القصيم» بصفة رسمية لجمع الزكاة من قبائل «عنزة»، كما أرسل - بناءً على طلب كبار زعماء «القصيم» - أحد كبار علماء الدين ويدعى «عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين» ليسد حاجة أهالي «القصيم» الدينية والروحانية. مكث «أبو بطين» هناك لفترة قصيرة إلا أن مهمته كانت ناجحة لدرجة أن أهالي «عنيزة» أصروا على أن يحضر عائلته وأن يستقر بينهم بشكل دائم. وبالمناسبة يجدر القول أن موسم شتاء عام ١٨٣٥/ ١٨٣٦ كان جافاً ولم يشهد أية أمطار، وطغت على العام الجديد موجة جفاف نجمت عنها زيادة في أسعار المواد الغذائية. وأسفرت تلك التطورات عن نزوح أعداد كبيرة من الأهالي إلى «البصرة» و «الزبير». ويشير المؤرخ «ابن بشر» وبشكل فيه الكثير من التدقيق، إلى ظهور مذنب بشكل واضح في مجرى الدب الأكبر، واستمر ظهوره لمدة خمسة أو ستة أسابيع تلت اليوم التاسع من شهر تشرين الأول، كنذير شؤم على الجفاف الذي أصاب البلاد بسبب العقوبة الناجمة عن اغتيال وقتل الأمير «تركي». ويقول المؤرخ أيضاً إن جفاف مماثل ضرب البلاد بعد اغتيال الأمير «عبد العزيز»[1].

(١) عند الرجوع إلى ما ذكره ابن بشر عن هذه الأحداث لم نجد ما يؤكد كلام فيلبي وتأويلاته التي أقل ما يمكن أن يقال سوء فهم لما ذكره ابن بشر وتحميل أخباره ما لا تحتمل من التأويلات التي كان ابن بشر بعيداً عنها خاصة قد عرف ابن بشر بحسن المعتقد وعاش وأرخ بين دعوة قامت على مبادئ تصحيح المعتقدات مما علق بها من البدع والخرافات (المعلق).

وفي أواخر عام ١٨٣٦ أو في بداية العام التالي، وصل «محمد علي باشا» إلى «ينبع» بصحبة «إسماعيل آغا» الذي كان قائداً للقوات التركية التي تقدر بألفي رجل. وعندما وصلت أخبار هذه التطورات إلى فيصل أرسل أحد رجاله إلى «إسماعيل باشا» وحمله الهدايا وطلب من ذلك الرجل أن ينقل إليه أخبار ونوايا «إسماعيل باشا». إن أخبار تقدم «إسماعيل باشا» إلى «الحناكية» عن طريق «المدينة»، إضافة إلى النصيحة التي تلقاها من «عبد الله بن رشيد» وزعماء آخرين كانوا في ذلك الوقت في الرياض، جعلت فيصلاً يقرر أن يسبق تقدم القوات التركية ويسارع في احتلال «القصيم» خوفاً من أن يجد الأهالي أنفسهم حيال وصول قوات «إسماعيل باشا» مضطرين للاستسلام. وبعد أن حشد كل قواته لملاقاة «إسماعيل باشا» في مكان حدده في الشمال، غادر «فيصل» الرياض متوجهاً إلى «الصريف» عن طريق «الخفيسة»، وهناك وصلته أخبار مفادها أن قوات «إسماعيل باشا» ومعها «خالد» قد وصلت إلى «الرس». عندها تحرك باتجاه «عنيزة» حيث انضمت إليه قوات «عنيزة» وقوات «بريدة» كل بقيادة أميره، وسار نحو «رياض الخبراء» التي لا تبعد كثيراً عن «الرس». وبعد مناوشات متقطعة غير هادفة، وبعد رفض أهالي «الشنانة» السماح لقوة أرسلها الأمير «فيصل» بالدخول إلى منطقتها (لأن أميرها كان قد ذهب بالفعل إلى إسماعيل باشا لعقد صلح معه)، اختلفت الآراء وأسفرت عن قراره بالتراجع إلى «عنيزة». ومنها عاد «فيصل» مع قواته إلى الرياض، وعلى ما يبدو تخلى عن أية فكرة لمقاومة احتلال العدو لمنطقة «القصيم».

وحتى في الرياض فقد كان مقدراً لـ «فيصل» أن يفتح عينيه على الحقيقة،

وأن يتحرر من الوهم، إذ وجد الأهالي هناك في مزاج عكر وغير مستعدين للوقوف إلى جانبه، وذلك إما بسبب فشله في التصدي للأتراك في «القصيم»، أو بسبب نجاح أصدقاء «خالد» وأعوانه في حشد الرأي العام الجماهيري ضده، ويبدو أن هذا السبب هو الأكثر احتمالاً. ولذلك قرر البقاء في عاصمته لفترة كافية لجمع كل ما هو موجود من السلاح والمؤن والمال في القلعة، وبعدها توجه بما تبقى من قواته نحو «الخرج» ومكث فيها عشرة أيام ثم تابع المسير إلى «الأحساء» ووصلها مع بداية شهر آيار من عام ١٨٣٧. قدم له «عمر بن عفيصان» الدعم والولاء الكاملين، وبقي هناك حتى منتصف شهر تموز. عمل خلال تلك الفترة على تنظيم جنود في صفوف قواته كان معظمهم من قبائل «مطير» و «العجمان» و «سبيع» و «السهول»، ومن أبناء مدن وقرى «الأحساء» الذين لم تكن لديهم الرغبة في لقاء الأتراك في منطقتهم.

تقدم في تلك الأثناء «إسماعيل آغا» بقواته باتجاه «عنيزة»، إذ لقي هناك مقاومة بسيطة استسلم الأهالي على إثرها، وتبع سقوط «عنيزة» استسلام «بريدة» دون مقاومة، ومن ثم استسلمت باقي مناطق الإقليم. حول «إسماعيل آغا» بعد هذا الانتصار وجهته إلى «حائل» فهرب منها «عبد الله بن رشيد» تاركاً الساحة مهيأة لتنصيب «عيسى بن علي» كحاكم على المنطقة بالأصالة عن«خالد بن سعود». وقام وفد من الرياض بزيارة «خالد» في «عنيزة» ليبايعوه الولاء ويتعهدوا له بولاء كافة مناطق «نجد». وباستثناء «الخرج» و«الفرع» أرسل زعماء هاتين المنطقتين رسالة إلى «خالد بن سعود»

عبروا فيها عن رغبتهم في قبوله أميراً شريطة أن يحكم «نجد» بنفسه ولا يترك الحكم للأتراك. تلقى «خالد بن سعود» رسالتهم عندما وصل إلى الرياض برفقة «إسماعيل آغا» في بداية شهر آيار.

أصر «إسماعيل آغا» على معاقبة أولئك القادة على صفقاتهم، وفي بداية شهر تموز (يوليو) سار «إسماعيل وخالد» بقوة مشكلة من الأتراك والعرب تقدر بسبعة آلاف رجل، وتوجها بها جنوباً بعد أن صفوا حسابهم مع جماعة «المحمل» وانتهوا من قضايا أخرى. وأثناء المسير انضم إلى قواتهما حاكم منطقة «الخرج» المدعو «فهد بن عفيصان»، لكن الأهالي في مناطق «الحوطة» و «الحريق» وباقي مناطق وادي «الفرع» قرروا مقاومة الأتراك بكل ما يملكون. شجعهم على موقفهم ذلك ثلاثة من أحفاد الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» وواحد من أبناء أحفاده، وكان هؤلاء الثلاثة من قادة المشايخ في الرياض، وكانوا قد هربوا منها إلى «الحوطة» قبل وصول القوات التركية.

أبدى القرويون في وجه القوات الغازية مقاومة رائعة، وأسفرت المعركة الباسلة عن إلحاق هزيمة ساحقة بالعدو وتكبد فيها إصابات بالغة حدثت في أرض المعركة وفي المطاردة التي تمت في الصحراء، ناهيك عن خسران القوات المعادية لمدفعيتها وأمتعتها ومؤنها. وعليه فر «خالد» و «إسماعيل» إلى الرياض ومعهم مجموعة صغيرة من بقايا الفرسان، وفي أثناء الليل فر «فهد بن عفيصان» (الذي كان قد التحق بالمعتدين وهم في الطريق إلى هناك). طارد القرويون القوات التركية الفارة وقتلوا أكبر عدد منهم.

وعندما سمع الأمير «فيصل» بأخبار هزيمة العدو أتى بقواته من «الأحساء» إلى «الدلم» وانضمت إليه هناك قوات من «الخرج»، كما

التحقت بقواته أعداد كبيرة من «الحوطة» و«الحريق». وقبل أن يتوجه بتلك القوة نحو الجنوب كان «إسماعيل باشا» قد ترك فرقة من الجنود الأتراك والمغاربة في الرياض، وعندما وصل «فيصل» إلى قرية «المصانع» الواقعة جنوب «منفوحة» التي تكثر فيها واحات النخيل، اعترض «خالد» سبيله بمجموعة قوية من الأتراك ومن أهالي الرياض لكن «فيصل» تمكن من إلحاق الهزيمة به بسبب دفعه لقواته الاحتياطية في قلب المعركة. أغفلت قوات «فيصل» الطريق المؤدية إلى الرياض، فما كان من «خالد» إلا أن اختبأ في «منفوحة». والواقع كان بإمكان «خالد» أن يؤمن هروبه إلى العاصمة لو أنه كان فعلاً في وسط المعركة في «المصانع»، والدليل على ذلك أنه لم يكن بين الذين استسلموا لقوات «فيصل» إثر الحصار القصير لمنطقة «منفوحة». والجدير بالذكر أنه بعد ذلك الحصار أعرب أهالي «منفوحة» عن ولائهم للأمير فيصل، والذي قام بمحاصرة الرياض واحتلال كافة الواحات المحيطة بها. بقي «خالد وإسماعيل» متحصنين داخل المدينة المسورة. بدأ ذلك الحصار في السابع من شهر أيلول عام ١٨٣٧ شددت قوات فيصل الحصار لدرجة أن الشح بدأ يبدو على ضروريات الحياة هناك. وبسبب الجوع بدأ المحاصرون يذبحون كل ما توفر لديهم من حيوانات داخل المدينة، إلى أن بدأوا يأكلون خيول المقاتلين، وارتفع سعر القهوة وأصبح سعر الصاع الواحد ثمانية عشر ريالاً. واستمر الحصار حتى الخامس من تشرين الأول حيث قرر «فيصل» وكبار مستشاريه شن هجوم كبير على المدينة، فقامت قوات «فيصل» بنصب سلالم التسلق في عدة نقاط حول أسوار المدينة، وأوشك المهاجمون على وضع قدم لهم في بعض المتاريس، إلا أن المدافعين

تمكنوا وبمحاولة مستميتة من إحباط الهجوم.

وفي العاشر من شهر تشرين الأول (اكتوبر) قدمت قوة كبيرة من رجال قبائل «سبيع» و «قحطان» لتخفيف حدة الحصار عن المدينة. وفي عشية ذلك اليوم وتحت جنح الظلام رفع «فيصل» الحصار عن «منفوحة»، وتراجع بقواته. وبعد مرور خمسة أيام تم خلالها تبادل الرسائل للتوصل إلى تسوية سليمة للقتال، التقى الأمير «فيصل» مع «خالد» في منطقة محايدة بين المدينتين، وتحاورا لمدة ثلاث ساعات دون التوصل إلى نتيجة ذلك لأنه لم يكن هناك أي أمل في حل مشكلة وجود الأتراك التي كان «خالد» ملتزماً بها بشكل لا سبيل للخلاص منه. ولم يكن الأمير «تركي» وكذلك كبار قادته ولا حتى أهالي «نجد» ليقروا بتجديد وعودة الاحتلال التركي (العثماني)، ولذلك احتدم القتال من جديد علماً بأن انسحاب «فيصل» كان قد مكن أعوان «خالد» من إدخال الخراف ومواد التموين الأخرى إلى الحامية، وبالرغم من المحاولة التي قام بها «فيصل» للحيلولة دون دخول تلك التموينات. شارف شهر تشرين ثاني على الانتهاء وبدأ تقريباً شهر رمضان، وحدثت في تلك الفترة بعض المناوشات المتفرقة حيث تمكنت قافلة من الوصول إلى الرياض قادمة من «القصيم» بالرغم من محاولات قوات «فيصل» اعتراض سبيل تقدمها. ولم تكن تلك القافلة محملة فقط برواتب القوات التركية، بل جلبت لهم أيضاً أخباراً سارة عن وصول «خورشيد باشا» إلى «القصيم» ومعه تعزيزات لدعم «إسماعيل باشا» و «خالد».

وفي الثالث من شهر كانون الثاني عام ١٨٣٨ برزت مشكلة كيفية المسارعة في وصول القوات التركية إلى الرياض والتي كانت قد توقفت في «القصيم»

تحسباً من اعتراض قوات «فيصل» لها ومهاجمتها. وعليه تقرر إرسال أحد الأشخاص ويدعى «الصيفي» ومعه بعض الجمال إلى تلك القوة يرافقه في حراستها ضابط تركي، ولكن عندما وصلا إلى «القصيم» وجدا أن الأتراك ينوون التملق للأمير «فيصل» بدلاً من محاربته، ولتحقيق هذه الغاية قام «خورشيد باشا» يرافقه الشريف «عبد الله» (من ينبع) الذي كان مفوضاً بزيارة الأمير «فيصل»، وحمل إليه الهدايا المقرونة بالعبارات اللطيفة، ووعده بأن تثبت القوات التركية حكمه على مناطق «نجد». ظلت تلك التعزيزات مع «خورشيد باشا» في «القصيم»، لكن الشريف «عبد الله» سارع إلى مقابلة «فيصل»، وفي حقيقة الأمر أغراه في أن يتخلى عن مقاتلة قوات خالد، ويفترض أنه قام بذلك على أمل أن الأتراك سيوفون بما التزموا به عندما تحين الفرصة. وهكذا جمع الأمير «فيصل» كل محتويات مخازنه وذخيرته من المناطق المجاورة للرياض، وأرسل حلفاءه من رجال القبائل للراحة في بيوتهم، ومن ثم توجه إلى «الخرج». وبعد أن جلس الأمير «فيصل» في «الدلم» يستمتع بضيافة عائلة «العفيصان» وحوله قوة كبيرة من المناطق الجنوبية كفيلة بأن تدافع عن نفسها، فكر في جس نوايا الأتراك فأرسل في الرابع والعشرين من شهر شباط أخاه «جلوي» إلى «خورشيد باشا» الذي كان في ذلك الوقت في «المدينة»، وأرسل معه الهدايا والرسائل الودية.

في تلك الأثناء اتخذ الأمير «فيصل» كل الإجراءات الضرورية ليأمن جانب كل مناطق الجنوب بما فيها «عُمان» و «الأحساء» و «وادي الدواسر»، وبدأ نجم سعده بتحسين في مناطق الشمال، إذ نجحت محاولة «ابن رشيد» في استعادة «حائل» من سلطة «عيسى بن علي» الذي كان الأتراك قد نصبوه حاكماً عليها.

كانت البلاد بدءاً من شمال «الخرج» تقف إلى جانب «خالد» وكانت الوفود من مناطق «المحمل» و «ضرما» قد قدمت لتعرب عن دعمها له. قام «خالد» بإرسال رجاله لجمع الجزية من مناطق البلاد التي كانت لا تزال تعاني ضراوة الجفاف والمجاعة التي سبق أن أشرنا إليها.

وبعد فترة من الزمن وصلت التعزيزات التركية من «القصيم» تحت قيادة «الملا سليمان» الذي كان قد عاد في تلك الفترة من مصر والذي كان مرشحاً ليحل محل «إسماعيل آغا» فأرسل «أحمد السديري» إلى إقليم «سدير» ومعه فرقة من الخيالة الأتراك ليتسلم منصب حاكم إقليم «سدير»، وزوده بأوامر لجمع ليس فقط الجزية المستحقة للحكومة التركية، بل أيضاً التعويضات الناجمة عن الدور الذي قام به القادة الإقليميون خلال الحصار الأخير لمدينة الرياض. على أي حال كان بمقدور «أحمد» أن يلطف من حدة الريح التركية لتتناسب مع بلد أنهكته المجاعة[1].

ومع أواخر شهر آيار وصل «خورشيد باشا» يرافقه «جلوي» إلى «عنيزة» واستقبلهم الأهالي والقبائل هناك بالترحاب والحفاوة والتكريم وأعربوا عن ولائهم لهما. مكث «خورشيد باشا» في «عنيزة» لمدة خمسة أشهر عمل خلالها على ترتيب أمور ذلك الإقليم، كما كان خلال تلك الفترة يستقبل زواره، وكان أبرز من قدم لزيارته «عبد الله بن رشيد» الذي أكد له

(١) كان الأمير أحمد السديري في غاية النبل والتدبير ولم ينجرف مع التيار حيث يذكر ابن بشر في أحداث عام ١٢٥٤هـ أن إماراته من أسباب الرفع عنهم عن رجالهم وأموالهم وذلك من حسن سيرته ولم يزل يدافع عنهم ويرى العسكر أحوالهم وأنهم في غاية الضعف من شدة الغلاء والقحط ويحض العسكر على الرفق بهم. . ج ٢ ، ص١٧٦ ، ١٧٧ (المعلق).

«خورشيد» على حكمه لـ «حائل» وحمله بالعديد من الهدايا قبل رحيله. ومن الشخصيات الهامة الأخرى التي قدمت لزيارة «خورشيد باشا» أيضاً كان زعيم قبيلة مطير «محمد الدويش».

بدأت الآن تتكشف خطة «خورشيد باشا» لاحتلال الصحراء العربية بشكل دائم، واقترنت تلك اللحظة بصدام حتمي واقع لا محالة مع قوات الأمير «فيصل». كان «جلوي» في حقيقة الأمر سجيناً لدى مضيفه، فوجد نفسه مضطراً للجوء إلى الحيلة ليخلص نفسه من الأسر، فطلب إذناً لزيارة «بريدة» ومُنح ذلك الإذن ومن هناك هرب والتحق بقوات أخيه في «الخرج». كان «خورشيد باشا» في تلك الفترة مشغولاً في تجهيز قلعته في «الصفا» بمنطقة «عنيزة»، وعند حوالي منتصف شهر تشرين الأول (اكتوبر) من عام ١٨٣٨ وقبل أن يغادر بقواته جنوباً متوجهاً إلى «الوشم» قرر ترك حامية عسكرية فيها تحسباً لوقوع المشكلات، وفي تلك الفترة انضمت إليه قوات «خالد» وقوات «العارض» لمهاجمة «الخرج». وصلت القوات المتحالفة هذه إلى «نعجان» في آخر يوم من شهر تشرين الأول ووجدت أن كافة الأهالي هناك كانوا قد انضموا إلى قوات «فيصل» في «الدلم»، ودارت معركة عرفت باسم «معركة الخراب» وهي عبارة عن بقايا أطلال مستوطنة قديمة أنشأ فيها «خورشيد باشا» مقراً لقواته. قامت قوات «فيصل» بهجمات ضد قوات «خورشيد باشا» إلا أنها لم تتمكن من التغلب عليها، وبعد أن حصن «فيصل» أسوار المدينة وحفر خندقاً حولها وأقام تحصيناً حول جميع مصادر المساه وراء الأسوار، حشد قواته للتصدي لهجوم العدو، واحتدمت المعركة بشراسة في عدة محاور وبالتحديد حول قلعة «هينة» التي كانت

مسرحاً لكر وفر كلا الجانبين، واستمرت المعركة إلى أن تمكن الأتراك أخيراً من الاستيلاء عليها وبالتالي السيطرة على مصادر المياه.

عند هذه المرحلة من تطور الأحداث، وصل «عمر بن عفيصان» إلى بلدة «السلمية» على رأس قوة كبيرة من «الأحساء» وأرسل برسالة إلى «فيصل» يقترح فيها أن تقوم الحامية بهجوم قوي على القوات التركية (العثمانية)، وأن تقوم قواته بمهاجمتها من المؤخرة. وفعلاً حدثت تلك المعركة في الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني واستمرت من الفجر حتى منتصف النهار. وبعد النكسة التي منيت بها القوات التركية (اكتوبر) في بداية الأمر، حشد الأتراك (العثمانيون) قواتهم من جديد وأجبروا قوات «ابن عفيصان» على فك الاشتباك والتراجع.

وفي الثاني من شهر كانون الأول المصادف للرابع عشر من شهر رمضان، احتلت قوات خورشيد «زميقة» واستولت على مستودعات المؤن، وبعد حوالي عشرة أيام أرسلت مجموعة الهاربين من «الحوطة» مندوباً إلى «خورشيد باشا» يطلبون منه السلام والعفو لهم ولكافة جماعاتهم التي تحارب بين صفوف قوات «فيصل» في «الدلم»، وعلى الفور وافق «خورشيد» على طلبهم. فما كان من فيصل إلا أن أرسل رسولاً إلى «خورشيد» يطلب منه عفواً عاماً عن تلك الحامية، وعاد المرسول وأخبر فيصلاً بأن «خورشيد» كان مستعداً للموافقة على ذلك الطلب شريطة أن يسلم «فيصل» نفسه للقوات التركية ويذهب معها إلى مصر لينضم إلى باقي أفراد عائلة «آل سعود» المقيمة هناك.

وبناءً على ذلك القرار لم تكن هناك حاجة للجوء إلى السلاح، وعليه سلم «فيصل» نفسه للقوات التركية بعد أن ضمن أن حياة وممتلكات أولئك الذين حاربوا معه بإخلاص كانت آمنة. وعند حوالي العشرين من شهر كانون أول من عام ١٨٣٨ بدأت رحلة «فيصل» إلى مصر بحراسة قوة تركية تحت إمرة «حسين اليازجي»، وسار معه إلى الأسر أخوه «جلوي» وكذلك ولداه «عبد الله ومحمد» (كان ابنه سعود صغيراً جداً لم يُرحَّل). ذهب في رحلة الأسر تلك أيضاً عمه «عبدالله بن إبراهيم بن عبد الله بن محمد» المعروف بلقبه «صنيتان»، وعند وصوله إلى القاهرة قدم له سكن. أمضى «فيصل» هناك معظم أوقات الليل والنهار في العبادة، ويقال بأن المرضى من الناس كانوا يأتون إليه للشفاء عن طريق قراءته عليهم آيات من القرآن (الرُّقية).

أما بالنسبة لـ «عمر بن عفيصان» فإن حماسه وتأييده الشديدين لقضية «فيصل» جعلاه لا يثق بعرض العفو العام الذي تلقاه من «خورشيد باشا»، ولجأ لفترة من الزمن إلى البحرين قبل أن يستقر به المطاف أخيراً في «الكويت». على أي حال كان قبل هروبه قد نصح جماعته بالتوجه إلى الرياض لأداء يمين الولاء لإمامهم الجديد الذي أصبح الآن المرشح دون منازع ليكون سيد كافة مناطق «نجد» وبدعم من الخديوي في مصر ومن ممثليه المحليين. لقد بلغت فترة حكم «فيصل» أربع سنوات ونصف، وتمتع قبل ذلك بعشر سنوات من الحرية قبل أن يدخل في مرحلة الأسر الثانية.

نُقل «أحمد السديري» من إقليم «سدير» إلى إقليم «الأحساء» الحيوي الذي لم ينسى أهله الجرائم البشعة التي ارتكبتها قوات «إبراهيم باشا»،

وكان الغرض من ذلك التعيين إظهار الاحتلال الجديد بمظهر أقل خشونة وبصبغة ألطف؛ إلا أن ذلك التغيير في المزاج لم يدم إلا لفترة قصيرة، وما أن هدَّأ «أحمد» من مخاوف الأهالي ورتب لإدارة الإقليم (بما فيه منطقة القطيف)، حتى نقله الأتراك (العثمانيون) ليتسلم مهام إدارة عائدات الدولة، وعينوا في مكانه شخص تركي يدعى «محمد أفندي» الذي أصبح تعسفه وتشدده على كل لسان. استمر «محمد أفندي» في تلك الإدارة إلى أن قام رجل مجهول بقتله أثناء عودته من منابع «عين نجم» الساخنة التي كان الناس يقصدونها للعلاج.

أرسل «خورشيد باشا» شخص آخر (يدعى أيضاً محمد أفندي) ليخلف «محمد أفندي» السابق في منصبه. استمر هذا الحاكم الجديد على نهج السياسة التعسفية التي نهجها سلفه، ولم ترق هذه الإجراءات إلى «أحمد السديري» لذلك منحه الأتراك إجازة من العمل نصبوا مكانه «عيسى ابن علي بن فايز» كتعويض عن حكمه الذي خسره في منطقة «حائل». وفي شهر تشرين الأول (اكتوبر) من عام ١٨٣٩ قام شخص بقتل «محمد أفندي» الأخير هذا، وفي الشهر التالي خلف «عيسى بن علي» «أحمد السديري» في منصبه.

كان «خورشيد باشا» مشغولاً في إقليم «الخرج» بتدمير تحصينات «الدلم» وتعزيز حامية «السلمية» بالقوات التي أوكلت إليها مهمة الإشراف على محاصيل مشاريع شبكة الري التي كانت تعتمد على ينابيع مناطق «السيح». هذا وفرض على أهالي «الحوطة» وأهالي وادي «الفرع» أن يقدموا للقوات

التركية (العثمانية) الحبوب والتمور، وفي طريق عودته من الخرج إلى الرياض أرسل بتعليماته إلى «حسن المعاون» المسؤول عن حامية «ثرمدا» وطلب منه أن ينظم حملة على نطاق واسع لتقدير المحاصيل والعائدات التي يمكن جبايتها من كافة مناطق «نجد» بدءاً من «القصيم» وحتى «الأحساء». وفي شهر آيار (مايو) من عام ١٨٣٩ نقل «خورشيد باشا» مقر قيادته من الرياض إلى «ثرمدا» وهناك بنى قلعة كبيرة تستوعب كل قوات حاميته، ومنها هناك فرض على كافة القرى والمناطق بأن تقديم نصف محاصيلها للقوات التركية بغض النظر عن حقيقة أن حالات المجاعة التي شهدها العام المنصرم كانت لا تزال تخيم بثقلها عليهم.

يقال إنه إما في شهر آذار (مارس) أو في شهر نيسان (ابريل) من عام ١٨٣٩ تلقى «خورشيد باشا» أخبار وفاة السلطان «محمود بن السلطان عبد العزيز»، كما وصله خبر مفاده أن ابن السلطان «محمود» المدعو «عبد المجيد» خلف أباه في السلطة. وبعد حوالي عام من ذلك التاريخ وبعد أن كان قد استقر في منطقة «ثرمدا» تلقى أوامر من مصر تستوجب عودته المباشرة إلى هناك ومعه أكبر عدد من قواته. وحيال هذه الأوامر كان همه الأكبر جمع الجمال لنقل قواته ومعداته إلى «المدينة»، وعليه تفاوتت ردود فعل القبائل لمطالبة هذه، إلا أن «عبد الله بن رشيد» أرسل له حوالي سبعمائة دابة من مناطق «شمر» لتلبي احتياجاته الملحة لنقل القسم الأكبر من قواته، ولم يفعل «عبد الله ابن رشيد» ذلك إلا ليسارع في رحيل القوات التركية (العثمانية) عن الصحراء العربية. وبينما كان في انتظار وصول هذه الدواب، قام «خورشيد باشا» بمساعدة «خالد» الذي كان قد انضم إليه في

«ثرمدا» بتنظيم حملة ضد قبيلة «شمر» في صحراء «البياض» الواقعة إلى الجنوب من «الخرج»، لكن لم تكتب لتلك الحملة النجاح إلا أنه من أبرز سماتها أن «خالد» الذي قاد تلك الحملة التأديبية صحب برفقته «عبد الله بن ثنيان» ، وبذلك قدم له أول فرصة للظهور في سجل أحداث صحراء «نجد». والجدير بالذكر أن «عبد الله بن ثنيان» هو من أبناء عمومة «خالد»، كان جده الأول «ثنيان» الأخ اللزم لجد «خالد» الأول والمدعو «محمد»، وهذا الأخير هو أول إمام سعودي.

وفي شهر نيسان من عام ١٨٤٠ أحدث «خورشيد باشا» تغييراً في منصب حاكم الأحساء، إذ عين في ذلك المنصب «حمد بن مبارك» (من منطقة «حريملاء»). ويفترض أن يكون ذلك التعيين خلفاً للراحل «محمد أفندي»، إلا أنه بعد مضي عام قام «خالد» باستدعاء «حمد» ونصب مكانه «موسى الحملي» أحد كبار زعماء قبيلة «بني خالد»، كما عين زعيماً آخراً من تلك القبيلة هو عبد الرحمن بن مانع في منصب رئيس دائرة الجبايات بدلاً من «عيسى بن علي» الذي وافته المنية في ذلك الوقت. حدث ذلك التغيير بالطبع بعد رحيل «خورشيد باشا» بعد أن جمع كل قواته من «شقراء» و«الزلفي»، والذي صادف في شهر آيار من ذلك العام. وبعد فترة وصل «خورشيد باشا» إلى «الشنانة» وهناك أعد آخر الترتيبات المتعلقة برحيله، وفي منتصف شهر تموز انضمت قوات حامية «ثرمدا» إلى قواته. وهكذا أصبحا مناطق «نجد» خالية من القوات التركية باستثناء بعض الجيوب الصغيرة التي تركها في «ضرما» و «الرياض» وبعض المناطق الأخرى، والتي لم يتجاوز عدد أفراد كل واحدة منها العشرين رجلاً.

وعند حوالي نهاية شهر تموز تم استدعاء «خالد» إلى «الشنانة» ليقابل «خورشيد باشا» للمرة الأخيرة، وفي طريق عودته إلى الرياض توقف في «عنيزة» و «بريدة» ومن هناك سار خلفه أميرا هاتين المنطقتين. وفي «شقراء» تقابل مع «عبد الله بن رشيد» الذي كان في طريقه لزيارة «خورشيد باشا». وفي شهر تشرين الأول المصادف لشهر رمضان أرسل في استدعاء كل قواته وطلب تجمعها في الرياض دون أي هدف محدد سوى أنه أراد أن يتيقن من مكانته في مختلف الأقاليم التي لم يعد بإمكانه أن يعتمد فيها على الدعم التركي ضد حكام تلك المناطق الذين فتر حماسهم ودعمهم للأتراك، وبناءً عليه تقدمت عشائر «سدير» بكامل قواتها يتقدمها «محمد السديري» حاكم الإقليم ومعه والده «أحمد» الذي كان «خورشيد باشا» قد أقاله من منصبه في «الأحساء». استغل «خالد» هذ التجمع ليحقق في الشكاوى الخاصة بأعمال الابتزاز وسوء المعاملة التي يتلقاها أبناء إقليم «سدير» ومختلف الحكام المحليين. أسفر ذلك التحقيق عن طرد كل المعنيين بتلك التصرفات من مناصبهم ، كما تم تعيين حاكم جديد على الإقليم يدعى «عبد الله الحصيّن» ولتحقيق أغراض الحملة المعدة للنيل من جماعات قبيلة «قحطان»، كلف «عبد العزيز» (ابن الشيخ عبد الله أبو بطين) بقيادة القوات السديرية، بينما كلف «عمر بن عفيصان» بتولي القيادة العامة لكافة الوحدات.

والجدير بالذكر هنا أن «عمر بن عفيصان» بعد أن ذهب طوعاً للمنفى في الكويت، عاد الآن إلى الرياض ليتصالح ويسوي الأمور مع «خالد». كان أهالي «نجد» يشكون في سلوك «خالد» بسبب خضوعه وتبعيته المكشوفة

للأتراك، إلا أن رحيل «خورشيد باشا» ورحيل معظم قوات الاحتلال التركي، ساهما في إزالة هذه الوصمة عن «خالد» ولم يكن هناك ما ينبئ بأن حكم «خالد» لم يكن سوى حكماً دائماً.

سرعان ما تعرض موقف «خالد» للتحدي من قبل أحد المدعين، ففي إقليمي «القصيم» و «جبل شمر» دارت حرب بين حاكم «حائل» وحاكم «بريدة» وكان لها أبعادها، لكن الحكومة المركزية لم تبدي أية محاولة للتدخل بين الفريقين، ولنتناول هذا الحدث بالتفصيل علينا أولاً أن نشير إلى أن أمير حائل «عبد الله بن رشيد» وأمير بريدة «عبد العزيز بن محمد» كانا على عداء منذ بضع سنوات. على أي حال نقل بعض المسؤولين أخبار الاقتتال بين هذين الأميرين إلى «خالد» إثر عودته من «شنانة»، وعند عودة هؤلاء المسؤولين كل إلى منطقته وقعت حادثة بسيطة نسبياً كان لها دور في استهلال الأعمال العدائية: فقامت مجموعة من «عنيزة» بالإغارة على مجموعة من «شمر» تابعة لابن «طوالة» وسرقت أعداداً كبيرة من الجمال، لكن «عبد الله بن رشيد» تصدى لجماعة «عنيزة». الواضح أن جماعة «عنيزة» كانت الجماعة المعتدية، إلا أن حاكم «بريدة» بادر في الإعداد لتأديب فريق «حائل» وأجرى مشاورات مع حاكم «عنيزة» ومع زعماء قبائل «القصيم» لتنظيم هجوم مضاد على نطاق واسع ضد «حائل»، وتمت الموافقة على هذه الخطة وقاد كل من حاكم «بريدة» وحاكم «عنيزة» قوة مقاتلة كبيرة تضم مقاتلين من مدن وقرى «القصيم»، إضافة إلى بدو من مناطق عدة من «عنيزة». تجمعت كل هذه القوات في «بقيعا» وسارت لتغزو منطقة «شمر»، وفعلاً نجحوا في هزيمتهم وأخذوا الكثير من الغنائم منهم. اقترح حاكم

«عنيزة» المدعو «يحيى بن سليمان» على القادة الآخرين أن يكتفوا بما كسبوه من الغنائم، وأن يعودوا إلى ديارهم، إلا أن زعيم «بريدة» أقسم بأن لا يثنيه شيء ويحمله على العودة حتى يقاتل «ابن رشيد» في عقر داره، ولذلك تابعت الحملة مسيرها ووصلت القوات المتحالفة إلى قرى «بقعا» والآبار المحيطة بها والتي تقع نوعاً ما إلى الشرق من «حائل»، وعلى الفور أرسل «ابن رشيد» أخاه «عبيد» على رأس قوة من الفرسان لمهاجمة رجال قبائل «عنيزة» عند موارد مياه «ساعدة» التي لا تبعد كثيراً عن «بقعا»، فقام «عبيد» بهجوم عند الفجر توالت بعده اشتباكات ضارية تأرجحت خلالها كفة الغلبة بين الأطراف المتحاربة. في تلك الأثناء تقدم «يحيى» بقوة صغيرة سيراً على الأقدام لنجدة أصدقائه في «بقعا»، وفي الوقت الذي وصلت فيه قوة «يحيى» إلى هناك للمشاركة في القتال، ظهر «ابن رشيد» على رأس قوة كبيرة كان قد تبع بها أخاه لدعمه عند الضرورة. كان للهجوم الذي شنه «ابن رشيد» أثر حاسم في ترجيح كفة القتال، إذ تمكنت قواته من إلحاق الهزيمة برجال قبائل «عنيزة». شاهد «عبد العزيز» كما شاهدت قوات «بريدة» تلك الهزيمة فما كان منهم إلا أن هربوا من «بقعا» آخذين معهم جمالهم وجمال «يحيى» أيضاً.

صمد «يحيى» ورجاله في القتال وقاتلوه بضراوة، لكن بسبب عدم تمكنهم من الوصول إلى موارد المياه، فسرعان ما شعروا بحدة العطش خاصة أن الشمس بدأت تتوسط كبد السماء. تمكنت قوات «ابن رشيد» من قتل معظم رجال «يحيى» وتمكنوا أيضاً من أسر «يحيى» نفسه الذي طلب منهم أن يأخذوه إلى خيمة «ابن رشيد». وهناك أوشكت عرى الصداقة

القديمة أن تخدمه إلى حد كبير لولا أن أحد أبناء «عبد الله بن رشيد» وصل في تلك اللحظة وقال أن «عبيد» لقي مصرعه في القتلى. كان وقع ذلك الخبر عنيفاً على «عبد الله» فما كان منه إلا أن أمر بذبح «يحيى» بكل برودة أعصاب، وسرعان ما ندم «عبد الله بن رشيد» على تسرعه في قتل «يحيى» لأنه اكتشف بأن «عبيد» لم يقتل بل كان على قيد الحياة.

تذكر الوثائق التاريخية أن عدد القتلى من قوات «بريدة» بلغ سبعين رجلاً، في حين بلغ عدد قتلى قوة «عنيزة» ثمانين رجلاً، ناهيك عن ذكر خسائر أهل القرى وخسائر البدو. والجدير بالذكر هنا أن التعداد الإجمالي لتلك القوة بلغ ألف ومائتي رجل، وقد غنمت قوات «ابن رشيد» من تلك المعركة الكثير من الغنائم.

رجع «عبد الله» (أخو يحيى الذي كان في تلك الفترة يقوم بزيارة إلى خالد في الرياض) إلى «عنيزة» ليشغل منصب الحاكم هناك، واتفق مع عدد آخر من قادة «عنيزة» على الطرق والأساليب التي يجب أن ينهجوها للانتقام من الهزيمة التي لحقت بهم مؤخراً. ولم يمض وقت طويل حتى جهزوا قوة تقدر بأربعة آلاف رجل وساروا بها إلى «حائل»، وبلغ بهم المسير حتى «الكهفة» وهناك ولأسباب غير معروفة تخلى المقاتلون عن الحملة وتفرقت القوات. ومن المحتمل أن تكون التطورات الخطيرة التي حدثت في الرياض والتي كان لا بد من التعامل معها السبب المباشر الذي أفضى إلى هذه الكارثة المفاجئة. ذلك باعتبار أنه أصبح من الواضح لدى «عبد العزيز» أن الاتحاد الذي أصبح الآن ممكناً بين «الرياض وحائل» كان أقوى من الإمكانات المتاحة لاستثارة أية تصادم.

ربما كان لدى «خالد» أسباب وجيهة تدعوه لإبقاء ابن عمه «عبد الله بن ثنيان» تحت إشرافه المباشر، كما سبق أن رأينا أنه أخذه معه في حملته ضد «شمر». وفي شهر تموز من عام ١٨٤٠ طلب من «عبد الله» أن يرافقه لزيارة «خورشيد باشا» في «الشنانة»، ولم يقبل اعتذاره في عدم الذهاب معه لأسباب صحية، كما أنه لم يقبل أن يتركه خلفه في العاصمة، وعلى أي حال تمكن «عبد الله» من التسلل والهرب من القافلة ولجأ إلى «عيسى بن محمد» زعيم قبيلة «المنتفق» على الحدود العراقية. وبعد أن رجع «خالد» من «الشنانة» أرسل يؤكد له بأن ليس هناك أي شيء يدعوه للخوف، وبذلك استجاب «عبد الله» إلى «خالد». ومن معسكر قريب من الرياض أرسل «عبد الله» رسولاً إلى الرياض ليعلن عن قرب وصوله وليستكشف الطريق، وعاد هذا الرسول إلى «عبد الله» بأخبار غير سارة وبفعلها قرر «عبد الله» الهرب إلى «حائر سبيع» في وادي حنيفة وهناك قدم عليه زعيم قبيلة سبيع «راشد بن جفران» المساعدة نظراً لقرابة المصاهرة بينهما. بعد ذلك عمل «عبد الله» على جلب المساعدة من منطقة «الحوطة» ومنطقة «الحريق» لدعم سياسته الرامية إلى التخلص من السيطرة التركية ومن الاحتلال التركي، وكان للجوئه إلى قبيلة «سبيع» ونفوذ مشايخ تلك القبيلة أثراً في النجاح الذي حققه. لم تسفر محاولة «خالد» في استرضائه من خلال توسط وجهاء قبيلة «السبيع» سوى في توضيح موقفه، إذ أعلن على الملأ عن نيته في القتال، وبناءً على ذلك التصريح استنفر «خالد» قواته وجمع مقاتليه من كافة المناطق. ولم تكن ردود الفعل لندائه مشجعة بشكل كاف، فطلب من أهالي الرياض الانضمام إلى حملة مقترحة لمحاربة «عبد الله بن ثنيان»، ترك

«خالد» حامية من الجنود الأتراك والمغاربة، إضافة إلى عدد من أتباعه في القلعة تحت إمرة «حمد بن عياف» (بصفته أمير المدينة)، وأيضاً تحت إمرة «عمر بن عفيصان» كقائد عام لتلك القوات، وبعدها تمكن من التسلل والهرب إلى «الأحساء». حدث ذلك عند بداية شهر تشرين الأول عام ١٨٤١، وكان ذلك الحدث نهاية فترة حكم «خالد» التي دامت لأقل من ثلاث سنوات. وبعد هروبه فر مؤيدوه من حوله تدريجياً، وبسبب أخبار التطورات السيئة التي حدثت في الرياض هرب «خالد» مجدداً من «الهفوف» وتوجه إلى «الدمام»، ومن هناك سار نحو الكويت ومن ثم إلى «القصيم» لينتهي به المطاف في «مكة» ليجد ملاذاً آمناً له. وبعد مضي عشرين عاماً داهمته المنية هناك.

بعد أن رفع «عبد الله» من مستوى المجابهة وأصبح متأكداً من دعم قبيلة «سبيع» والمناطق الجنوبية له، تبنى أساليب وخطط مشابهة للأساليب التي نهجها الأمير «تركي» في محاولته لاستعادة السلطة، فتحرك بقواته في أول الأمر إلى «ضرما» حيث كانت هناك حامية تركية صغيرة رفضت في البداية مناشدته إياها الاستسلام، علماً بأن بلدة «المزاحمية» المجاورة للحامية رحبت به واعترفت بقيادته. وبعد قتال وحصار داما لفترة قصيرة وافقت الحامية التركية على الرحيل بسلام للانضمام إلى أبناء جلدتهم في منطقة «ثرمدا»، وبعدها احتل «عبد الله» البلدة. اتخذ أهالي «حريملاء» سياسة الحياد حيال إصراره على الحصول على دعم الأهالي له، إلا أن أهالي «العمارية» و «أبا الكباش» أرسلوا إليه متطوعين وسار «عبد الله» بهم مع قواته إلى «عرقة» وتمكن من الاستيلاء عليها بغارة عنيفة رغم المقاومة التي

واجهته من الحامية المرابطة فيها بقيادة «حمد بن عياف»، وبعد ذلك الانتصار اعترف أهالي «منفوحة» بقيادته الأمر الذي شجعه على التوجه بقواته إليها.

كان أهالي الرياض ومنذ فترة طويلة يناشدون «خالد» أن يقدم لهم العون الفوري، لذلك ألحت جماعة أهالي الرياض (التي كانت ترافق «خالد» خلال وجوده في «الهفوف») على «خالد» إما أن يرسل قوة لنجدة أهل الرياض أو أن يسمح لهم بالعودة إليها والاستسلام للغاضبين. وافق خالد على إرسال قوة مشكلة من ثلاثمائة جمل وسرعان ما اشتبكت في قتال وهجمات متقطعة دارت حول منطقة «منفوحة»، وساندتها في تلك الاشتباكات الحامية الموجودة في الرياض. وعند عودة تلك الحامية من منفوحة إلى الرياض تحت جنح الظلام تبعها سراً «ابن ثنيان» ومعه عدد من رجاله. سهلت جماعة من أصدقائه دخوله إلى الرياض عبر حي «دخنة» وجاء ذلك التسلل في الوقت الذي كانت فيه القوات والأهالي تحتفل بالأغاني والأهازيج لنيلهم من الأعداء حول منطقة «منفوحة». وفجأة ظهر «عبد الله بن ثنيان» (الذي كان يتحلى ببعض الصفات العسكرية التي كان يتحلى بها الأمير «تركي») وسط المحتفلين شاهراً سيفه، وأبلى بلاءً حسناً في القتال الذي نشب بينهم، وتراجع المغاربة إلى القلعة وأوصدوا الأبواب في وجه قوات «عبد الله بن ثنيان» ورجاله، كان «عبد الله بن ثنيان» قد وزع رجاله في عدة مواقع من المدينة، واتخذ من منزل حاكم الرياض «حمد بن عياف» مقراً لقواته، ولذا بدأ كبار رجالات المدينة في القدوم إليه ليعربوا له عن اعترافهم بقيادته لهم، ومن بين الذين قدموا إليه في مقره ذلك ليقسموا له يمين الولاء والطاعة كان «عمر بن عفيصان».

عرض «ابن ثنيان» على القوات المغربية والتركية (العثمانية) الموجودة في

القلعة الاستسلام لقاء شروط مشرفة، فوافقت تلك القوات عليها مقابل أن تجلوا عن مناطق الرياض برمتها. وفي صباح اليوم التالي وإثر سماع بعض العيارات النارية من جهة الحامية التركية، وضع «عبد الله» عدداً من رجاله في المنازل المجاورة تحسباً لقيام الأتراك بهجوم، إلا أنهم قرروا قبول شروطه وخرجت القوات التركية رتلاً واحداً من المدينة.

وهكذا أصبح «عبد الله بن ثنيان» حاكم «نجد» دون منازع، وقدمت الوفود المعتادة إلى الرياض لتؤكد له على ولائها، وأوضح لهم بأنه ليس على استعداد لتحمل أو قبول أي تمرد في مناطقهم.

أمر «ابن ثنيان» أهالي «المجمعة» بإعادة بناء قلعتهم التي كانت قد دمرت بموجب أوامر «خالد»، وأمر باعتقال أربعة من قادتهم والاحتفاظ بهم كرهائن لحين تنفيذ أوامره. هذا وعين «ابن ثنيان» على الإقليم حاكماً جديداً يدعى «عبد العزيز بن مشاري بن عياف».

حان الآن دور أهالي وادي الدواسر ليدفعوا ثمن خطاياهم، فأصدر «ابن ثنيان» أمراً بإقالة حاكم وادي الدواسر المدعو «محمد بن جلاجل»، كما أقال عدداً من كبار الشخصيات من مناصبهم، وعين «عبد الرحمن بن عبيكان» حاكماً على ذلك الإقليم.

وفي بداية عام ١٨٤٢ أرسل «ابن ثنيان» (عبد الله بن بتال المطيري) وهو من عائلة محاربة مشهورة لاحتلال إقليم «الأحساء»، وبعد أن حقق نصراً في مهمته أرسل «ابن ثنيان» (عمر بن عفيصان) إلى هناك ليتسلم مهام منصب الحاكم فيها وبعد أن مارس مهام مركزه في مقر قيادته القديم في قصر

«الكوت» بالهفوف أمر «عمر بن عفيصان» كافة وجهاء الإقليم بالذهاب إلى الرياض ليقدموا الإجلال والاحترام لسيدهم الجديد. وهناك أمر بتوقيف أربعة منهم كرهائن لضمان حسن تصرف البقية ولحسن تصرف كافة أهالي الإقليم على حد سواء. وكان لا بد من معالجة الأوضاع في المناطق الساحلية التابعة للقطيف، ومما زاد من تعقيد المشكلات هناك وجود مصالح مكتسبة للأسرة الحاكمة في البحرين، وعليه استدعى «ابن ثنيان» في شهر حزيران كافة القوات وتجمعت عند آبار «الرمحية» و «رماح» في منطقة «العرمة»، وهناك وعند حوالي منتصف شهر تموز أقام مقر قيادته. ومن ذلك المقر أرسل قوة تحت أمرة أحد العبيد ويدعى «بلال بن سالم الحرق» لاحتلال «القطيف»، كما أمر «عمر بن عفيصان» بالتوجه إلى هناك ليتولى زمام الأمور، ،ناب عن «ابن عفيصان» خلال غيابه عن «الأحساء» ابن عمه «فهد ابن عبد الله بن عفيصان».

وفي تلك المرحلة من تطور الأحداث التاريخية كانت البحرين تعاني من غليان ضروس احتدمت فيه الاصطدامات بين الحكام ومنهم «محمد بن خليفة» الذي ثار ضد عمه «عبد الله». وبصفته الحاكم آنذاك طلب «عبد الله» العون من قبيلة «المرة» التي استجابت لطلبه وتحركت لتسلب وتنهب كافة مناطق ومدن الجزيرة. وباعتبار أن «محمد» لم يتمكن من تحقيق هدفه في الفوز بالحكم على البحرين، وهرب والتجأ إلى «ابن ثنيان» في «الرمحية»، وفي نفس تلك؛ الفترة تمكن حاكم «سيهات» المسجون من الهرب من السجن وفر إلى البحرين.

عين «ابن ثنيان» (أحمد السديري) أميراً على «القطيف» وعلى المناطق التابعة لها، وعاد «عمر بن عفيصان» إلى منصبه الحقيقي في «الهفوف»، وهكذا انتهى «ابن ثنيان» من ترتيب أمور أقاليم المنطقة الشرقية وعاد إلى الرياض وأمر بإعطاء إجازات لكافة عناصر وحداته المقاتلة وقدم لهم الهدايا، وحاول أيضاً إرضاء السلطات التركية فأرسل أيضاً الهدايا إلى «عمر باشا» حاكم مكة، كما حمل «محمد بن جلاجل» الهدايا وطلب منه أن يوصلها إلى «محمد بن عون». وتجدر الإشارة هنا إلى أنه استكمل احتلال كافة مناطق «الأحساء» بأن أرسل قوة للاستيلاء على ميناء «العقير» الذي كان لا يزال تحت سيطرة السلطات البحرينية.

وخلال الأسبوعين الأولين من شهر تشرين الثاني (المصادفين للجزء الأخير من شهر رمضان) هطلت أمطار غزيرة على كافة مناطق «نجد» وأنهت الجفاف الذي دام لمدة تسع سنوات، أي منذ اغتيال الأمير «تركي». سببت تلك الأمطار الفيضانات التي دفعت أمامها مياه غزيرة سالت في كافة الأودية الرئيسية وبالتحديد في أودية منطقة «سدير» التي لم تعرف الفيضانات منذ أربعة عشر عاماً. ألحقت تلك الفيضانات الكثير من الضرر في واحات النخيل وفي المحاصيل التي كانت على وشك الحصاد في تلك الفترة، إلا أن كافة مناطق البلاد نعمت في وقت لاحق بالمراعي الخيرة الوفيرة، وبالمحاصيل التي انتعشت إثر توقف الأمطار. وكان من الطبيعي وعلى ضوء الأحداث التي تبعت مباشرة الأمطار الموسمية لذلك الشتاء، أن ينظر الناس إليها على أنها نذير خير على الصعيد السياسي.

ففي شهر شباط من عام ١٨٤٣ تمكن «فيصل» ومعه ابنه «عبد الله» وابن عمه «عبد الله البراهيم» وأخاه «جلوي» من الهرب من القلعة في القاهرة التي كانت الحراسة مشددة عليها. تمكنوا من الهرب بعد أن تدلوا على حبال من أعلى الصخور التي بلغ ارتفاعها ما يزيد على مائة قدم، وكانت بعض الجمال في انتظارهم لتحملهم خارج مصر، وكل ما نقل إلينا عن طريق مؤرخي تاريخ «نجد» عن تلك الفترة الدرامية أنهم واصلوا المسير حتى جبل «شمر» وهناك كان «عبد الله بن رشيد» الصديق القديم للأمير «فيصل» ومرافقه الحميم في استقبالهم. وضع «عبد الله بن رشيد» كل إمكاناته وكل قواته تحت تصرف الأمير «فيصل» وجماعته دون أي تحفظ، وأرسلت الرسل إلى كافة أرجاء المناطق وإلى كافة قادة القبائل لتقديم ولائهم ودعمهم للأمير «فيصل». أعرب كافة أصدقاء «عبد الله بن ثنيان» عن ضرورة إعلان الجهاد المقدس، كما نصحوه بحشد كل القوات لمجابهة الخطر القادم على أمل أن يردع تولي الأمير «فيصل» لمقعد القيادة الناس عن إلقاء أنفسهم في أحضان منافسيه. وبعد فترة وجيزة تبين أن الأمير «فيصل» كان قادراً على حشد العديد من الناس لمناصرة قضيته، فأرسل «ابن ثنيان» أمير «ضرما» إلى الأمير «فيصل» وأرسل معه الهدايا. وفي نفس الوقت تحرك بقواته عن طريق «الخفس» باتجاه «سدير» وأجرى اتصالاً من هناك مع أمير «بريدة» الذي توقع أن يكون من أكثر المتحمسين لمناصرته نظراً للعداء الشديد القائم بينه وبين «ابن رشيد»، وفي طريق عودته إلى «بريدة» تلقى تأكيدات من أمير «بريدة» أكد له فيها على ولائه ودعمه له. أحدث هذا التطور بعض الإرباك في

منطقة «عنيزة» حيث جمع حاكمها «عبد الله بن سليمان بن زامل» وجهاء المنطقة لينظر ويتدارس معهم في أمر الإجراء المناسب الذي يجب اتخاذه. وكان قرارهم بالإجماع تقديم الدعم للأمير «فيصل»، وأرسلوا، «عبدالعزيز» (ابن الشيخ عبد الله أبو بطين) ليبلغه بذلك وليوجه إليه الدعوة بالقدوم إلى «عنيرة». كان فيصل في تلك الأثناء قد توجه جنوباً وتمكن «عبدالعزيز» من مقابلته في منطقة «الكهفة» ومن هناك توجها إلى «عنيزة».

سار «جلوي» (أخو الأمير «فيصل») و «عبد الله بن رشيد» بقوة شكلاها من قوة الأمير «فيصل» وتوجها لزيارة زعيم قبيلة «مطير» المدعو «محمد بن فيصل الدويش» في معسكره بسهل «الحمادة» وعندما سمع «ابن ثنيان» بخطط الأعداء غادر «بريدة» وانطلق مسرعاً لينصب كميناً للأمير «فيصل» على الطريق المؤدي إلى «عنيزة»، لكن الأمير «فيصل» كان قد سلك طريق موارب آخر، وكانت الأهازيج والأغاني التي استقبل بها الأمير «فيصل» في «عنيزة» أول الأخبار التي وصلت إلى «ابن ثنيان» بخصوص وصول «فيصل» إلى هناك. وبسبب خيبة أمله في فقدان تلك الفرصة، عاد «ابن ثنيان» إلى «بريدة» ليجد أن أعداداً كبيرة من أتباعه وخاصته من منطقة «سدير» والمناطق الأخرى، قد انشقت عنه والتحقت بالأمير فيصل، وعليه أمر قواته بالاستعداد للتحرك باتجاه «عنيزة»، لكنه ولسبب ما وجه سير القوات باتجاه «المذنب» ومن هناك تابع المسير بصعوبة تحسباً من أي هجوم يمكن أن يشنه عليه «جلوي» ورجال قبائل «مطير». أدركت قوات «جلوي ومطير» مؤخرة قوات «ابن ثنيان» الشاردة في منطقة «الوشم»، وفي الطريق

فر العديد من رجال قوات «ابن ثنيان» وعادوا إلى ديارهم، واستمرت قوات «جلوي» وحلفاؤه من رجال قبيلة «مطير» بالتقدم شرقاً للاستيلاء على واحات «ثادق» الرئيسية الهامة والممتدة على طول الطريق من الرياض حتى «سدير». ولأن «عبد الله بن إبراهيم» كان في مهمة لاحتلال «سدير» باسم «فيصل، وصلت إلى «فيصل» رسائل مفادها أن الطريق أصبح سالكاً وممهداً لتقدم قواته نحو الرياض.

كان «ابن ثنيان» في تلك الفترة مشغولاً في أعداد ترتيبات للدفاع عن الرياض، وشرع في توزيع الحاميات والمقاتلين على مختلف الأبراج والقلاع الواقعة على السور الدائري. تحرك «فيصل» في شهر نيسان من «عنيزة» إلى «شقراء» ومن هناك توجه إلى «حريملاء» حيث انضمت إليه قوات «جلوي» جاء إليه زعماء منطقة «سدير» ليقدموا له يمين الولاء. مكث الأمير «فيصل» هناك لفترة من الزمن أرسل خلالها رسالة إلى «عبد الله بن ثنيان» اقترح عليه فيها تسوية سلمية للنزاع الدائر بينهما لتجنب سفك وإراقة الدماء، وعرض عليه أيضاً شروطاً سخية لتحقيق تلك التسوية، وعرض عليه أنه سيحظى بحصانة تامة وأن بإمكانه أن يتوجه برجاله وممتلكاته وأسلحته إلى أي مكان يختاره في «نجد» أو في أية منطقة أخرى دون أي تحرش أو اعتداء يمكن أن يقع عليه. إضافة إلى ذلك وعده بأن يحصل على هبة مالية سنوية تكفي لتغطية كافة احتياجاته. رفض «ابن ثنيان» هذ العرض وأصبحت الحرب بين الطرفين أمراً محتوماً، وعليه تحرك «فيصل» بقواته نحو «سدوس» ومن هناك بعث برسالة إلى أمير «منفوحة» أصر فيها على ضرورة أن يقدم أمير

«منفوحة» دعمه لقوات الأمير «فيصل»، واقترح في تلك الرسالة أن تكون «منفوحة» قاعدة العمليات العسكرية كما كانت أثناء الحصار الذي فرضه «فيصل» على «خالد» قبل خمس سنوات.

وبعد بضعة أيام من وصوله إلى هناك، امتنع الأمير «فيصل» عن القيام بأي أعمال عدائية ضد الرياض، وأجرى خلال تلك الأيام اتصالات سرية مع كبار قادة الأهالي في الرياض، وفي الثاني والعشرين من شهر آيار أرسل «جلوي» على رأس قوة صغيرة من المقاتلين البواسل وأمره بالدخول إلى المدينة عن طريق بوابة «دخنة» التي كان من المقرر أن يفتحها لهم بعض المتحالفين مع الأمير «فيصل». لكن حدث في تلك الأثناء أن كان «ابن ثنيان» يقوم بجولة تفقد في المدينة، وفي تلك الأثناء تلقى أخبار دخول قوات «جلوي» إليها. عندها عاد مسرعاً إلى القلعة لكن قوات «جلوي» كانت قد تمكنت من احتلال العديد من المنازل المجاورة وتمركزت فيها، وكان بإمكان مدفعية «ابن ثنيان» في القلعة أن تنال من تلك المنازل، لكن الأمير «فيصل» دخل بنفسه على رأس قوة من رجاله إلى المدينة، ودارت الاشتباكات بين الطرفين لمدة ثلاثة أسابيع على الشكل المتقطع المعتاد. علمت قوات «فيصل» في تلك الأثناء أن هناك خطة للنيل من حياة الأمير «فيصل» فتمكنت من إحباطها وإفشالها.

وفي الحادي عشر من شهر تموز أرسل «عبد الله بن ثنيان» رسالة إلى «عبيد ابن رشيد» يقترح فيها أن يقوم بالتوسط للتوصل إلى تسوية سلمية، لكن عندما قدم «عبيد» إلى «عبد الله بن ثنيان» لمناقشة تلك المسألة معه اتضح أن ليس هناك أساس للتوصل لأي اتفاق، الأمر الذي أسفر عن توقف المفاوضات.

وبعد مضي يوم أو يومين غادر «ابن ثنيان» القلعة لأسباب لم تعرف، وفي الطريق تمكنت قوات «فيصل» من التعرف عليه واعتقاله، وأجبر على المثول أمام الأمير فيصل. وصادر «فيصل» كل ممتلكاته وأصدر عفواً عاماً على كل أتباعه وأطلق سراح الذين كان «ابن ثنيان» قد أودعهم في السجن ورد إليهم كل ما كان قد أخذ من ممتلكاتهم. هرع أهالي الرياض ليباركوا لـ «فيصل» بعودته إلى الحكم بعد انقطاع دام لأقل من خمس سنوات. وأول عمل قام به «فيصل» كان إعادة النظر في الترتيبات التي فرضها «ابن ثنيان» على «الأحساء» وعلى «وادي الدواسر»، إذ عين «عبد الله بن بتال المطيري» أميراً على «الأحساء»، وعين «ابن عثيمين» أميراً على «وادي الدواسر»، وأمر بإعطاء إجازة لكافة القوات التي ساعدته في استرداد الحكم وسمح لهم بالذهاب إلى أسرهم. وانتهت مشكلة «عبد الله بن ثنيان» بموته في الثالث عشر من تموز من عام ١٨٤٣. أدى «فيصل» بنفسه صلاة الميت على جثمان «عبد الله بن ثنيان» وسار في جنازته إلى المقبرة لدفنه.

رحبت السماء بعودة الأمير «فيصل» إلى «نجد»، وذلك بظهور مذنب في السماء من جهة الغرب، وفي اليوم الثاني من شهر آذار عام ١٨٤٣. وبقي ذلك المذنب ظاهراً للعيان حتى نهاية ذلك الشهر. يقارن المؤرخ «ابن بشر» ظهور هذا المذنب بظاهرة مشابهة حدثت في السادس عشر من شهر كانون أول من عام ١٦١٨، وصادق على صحة ذلك الشيخ «مرعي بن يوسف الحنبلي»، علماً بأن تلك الظاهرة لم تكن متزامنة مع أي حدث بارز يتعلق بنشاطات الإنسان على الأرض. تناول المؤرخ «ابن بشر» السنوات العشر الأولى فقط من الفترة الثانية من حكم الأمير «فيصل»، إذ اختتم سرد

الأحداث التي كان في صددها حتى شهر آيار عام ١٨٥٤ دون أن يذكر سبب توقفه عند ذلك التاريخ، والجدير بالذكر أن «ابن بشر» عاش حتى تاريخ الخامس عشر من شهر آب عام ١٨٧٣، ولا بد أنه كان شاهد عيان لكافة الأحداث التي وقعت خلال فترة حكم الأمير «فيصل»، كما شهد الأمور التي حدثت على أعقابها مباشرة. ولا يسعنا إلا أن نأسف لتوقفه عند الأحداث التي حصلت خلال فترة حكم الأمير «فيصل».

وللحصول على معلومات تتعلق بتلك الأمور (أى اعتباراً من عام ١٨٥١ وما بعد) كان علينا أن نعتمد على المحلل التاريخي المدعو «إبراهيم بن صالح ابن إبراهيم بن عيسى» الذي ولد عام ١٨٥٤ في قرية «أشيقر» بإقليم «الوشم»، وفيما يتعلق بروايته وسرده التاريخي جاءت الاعتبارات السياسية لتقطع تسلسل سرد أحداث روايته حتى من النقطة التي بدأ عندها، ولتعكس معرفته الشخصية بالأحداث وحمكمه المتعقل عليها.

يمكن النظر إلى الفترة الثانية من عهد حكم «فيصل» ومن أوجه عدة على أنها عتبة أو بدء للتاريخ الحديث أو المعاصر للصحراء العربية. وحسب ما هو متوفر انسحبت كلياً إلى مناطق «الحجاز» خلال فترة حكم «ابن ثنيان» القصيرة، لذلك لم تكن هناك أية قوى أحنبية كان يتوجب على الأمير «فيصل» التعامل معها. سرعان ما استعادت «نجد» صبغة الحياة الطبيعية الخاصة بها، وكانت تلك مرادفة لحياة الأمن والرخاء والانسجام التي كان نعيمها شيئا نادراً أو منقطعا حتى عهد قريب، ولم يشر إليها الأمير «فيصل» إلا نادراً في قصائده الرعوية الطنانة الطويلة التي تلاها على مسامع أتباعه

بعد أن اعتلى سدة الحكم. كانت تلك القصائد في مضمونها دينية، وهي دون شك كانت ثمرة تأملاته الطويلة خلال فترة سجنه في مصر، حيث كان عزاؤه الوحيد في محنته تلك ثقته الكبيرة والأكيدة بالله سبحانه وتعالى. أحب كتاباته تلك أحب أن يلفت نظر القراء إلى أهمية أن الورع ومخافة الله هما من الركائز الأساسية للحياة السعيدة، وإن الأساس في الإيمان هو الاعتقاد بوحدانية الخالق التي منها تنبثق مستوجبات الصلاة، في حين أن الزكاة هي رافد طبيعي من مستلزمات الصلاة بما فيها دفع ما يتوجب على الفرد المؤمن لخزينة الدولة، كما أن من واجب كل مسلم مؤمن أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. هذا وضمن كتاباته بعض المتقطفات من مصار قديمة غير محددة مفادها أن ركائز الإسلام هي عشرة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله، وأداء الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله والتكافل والتضامن بين المسلمين، وإطاعة الحاكم، والإحسان للفقراء والمحتاجين... وهذه النقطة الأخيرة أضافها إلى القائمة بعد تفكير لاحق. ناشد أبناء جلدته أن لا يسيروا في خطى الأشرار، وأن يرجو الخلاص والرحمة من الله لأن الأماني في هذه الدنيا ما هي إلا رأسمال خاسر. هذا وكان الأمير «فيصل» يأمر الحكام والقضاة بقراءة هذه الوصايا في الخطب بالمساجد، وأمرهم أيضاً أن يعاودوا قراءتها مرة كل شهرين. وإضافة إلى هذه النصائح والحرص الذي كان يتوخاه في اختيار مسؤولين ترقى سمعتهم فوق الشك والطعن ليتولوا المناصب في مختلف مناطق البلاد، يمكن القول

إنه لم تكن لديه أية آليات محددة يستخدمها للربط بين الحماس الديني وبين النشاطات الدنيوية للدولة كما فعل أسلافه وأجداده ضمن أطر منظومة الدعوة الدينية. كانت الترتيبات العسكرية التي قام بها ترتيبات إدارية، كما أن كافة الأطراف المعنية بالأمور العسكرية كانت متفهمة لما يجري، وكان يتم حشد القوات والجند بناءً على سجلات توضح التزامات كل بلدة وقرية وقبيلة بواجبها في تقديم الرجال والجمال والخيول التي تتطلبها مختلف أنواع الاستعدادات العسكرية. ومن حيث المبدأ كانت الدولة هي المسؤولة عن توفير السلاح والذخيرة عند الحاجة، وكان يتوجب على القوات التي يتم استدعائها أن تحضر معها الجمال (وكانت النسبة في بعض الحالات تستدعي أن يقدم كل رجلين جملاً واحداً) وإلا توجب عليها أن تشارك سيراً على الأقدام. وكانت الدولة بدورها تقدم للفرسان تشجيعات وإغراءات خاصة، وفي الحقيقة كان يدفع نصيب معين لكل رجل محارب من الأشياء التي يفوز بها خلال الحروب، بمعنى أن خمس غنائم الحرب كانت تخصص لخزينة الدولة ويوزع الباقي على القوات بنسبة حصة لكل مقاتل على جمل أو مقاتل من المشاة، وتدفع حصتين لكل فارس. اقتضى برنامج الحياة الطبيعية في «نجد» إقامة معسكر موسمي خلال فترة الشتاء أو فترة الربيع من كل عام، كما اقتضت الخلود إلى فترة راحة خلال أشهر الصيف، علماً بأننا نتفاجأ أحياناً لكثرة النشاطات العسكرية التي كانت تمتد حتى فصل الصيف الحار أو إنها كانت تبدأ في أحوال غير مواتية.

أما بخصوص حال الحملات التأديبية ضد القبائل فيعود سبب القيام بها

في أوقات معينة إلى أن القبائل كانت تنتشر - وخاصة في مواسم الأمطار الخيرة - في مناطق مختلفة من الصحراء، لكنها كانت في فصل الصيف تتجمع بالقرب من الآبار لتوفر مياه الشرب إلى جمالها وقطعانها التي كانت بحاجة إلى الماء بشكل متكرر. أما بخصوص العمليات العسكرية التي كانوا يشنونها ضد الأتراك (العثمانيين)، كانوا يأخذون تأثير عوامل الطقس بعين الاعتبار، وكانوا يعتبرون حرارة الطقس عامل يخدم ويسهل حملاتهم العسكرية.

يمكن أن يكون تاريخ أحداث السنوات الثمانية الأولى من الفترة الثانية لحكم الأمير «فيصل» ملخص في سلسلة من الأحداث التي تعطي صورة أكثر شمولية عن الوضع في «نجد» خلال العقد الخامس من القرن التاسع عشر. فقد تناول المؤرخ «ابن بشر» بعض هذه الأحداث بالإسهاب والتفصيل، وكان ينظر إليها من وجهة نظر شاهد عيان. لكن يمكن القول في المقام الأول إن الأمير «فيصل» انشغل بشكل طفيف بالتأثيرات الخارجية على حكمه. كانت الحالة الوحيدة التي تعرض فيها لمحاولة اعتداء من طرف أجنبي في شهر نيسان من عام ١٨٤٧ هي عندما سار «محمد بن عون» شريف مكة بقواته مستهدفاً «القصيم». ويعود سبب تلك الحملة إلى أن جماعة من إقليم «القصيم» (رغبت طوعاً أن تعيش في الحجاز) اقترحت على الشريف «ابن عون» فكرة أنه إذا هاجم «نجد» لصالح «خالد بن سعود» الذي كان في ذلك الوقت لاجئاً أيضاً في مكة، فإن الأمير «فيصل» لن يقاوم احتلاله لمناطق «نجد» أو أنه على الأقل لن يجد الدعم الكافي من القبائل المحلية لمقاومة قوات الشريف بشكل جدي. وسارت الأمور في البداية على

الأقل لصالح القوات الغازية التي كان يرافقها «خالد» ومعه فرقة من القوات التركية، حيث استسلم أهالي «القصيم» إلى الشريف دون أن يبدوا أية مقاومة. والجدير بالذكر أن هؤلاء الأهالي كانوا قد اتخذوا موقفاً حيادياً حيال فكرة الاستقلال، لكن تحت شكل ما من أشكال الحماية التركية. وكانوا يكنون وبشكل خاص الضغينة لـ «عبد الله بن رشيد» الذي كان دعمه وولاؤه للأمير «فيصل» مكشوفاً وشائناً حسب رأيهم. علاوة على ذلك سارع زعماء القبائل ومن بينهم قبيلة «مطير» إلى الارتماء في أحضان قوات الشريف الغازية.

إلا أن ردة فعل الأمير فيصل حيال هذه التطورات جاءت أبعد مما تكهن به أعوان الشريف «محمد بن عون»: فأرسل ابنه «عبد الله» على رأس قوة نظمها على عجل من أهالي المناطق الوسطى والجنوبية إلى منطقة «المجمعة» ليحمي مناطق «سدير» و «طويق» ضد أي تقدم يمكن أن تقوم به قوات العدو. وعندما علم الشريف «محمد بن عون» بذلك أرسل رسولاً إلى الأمير «فيصل» ليؤكد له على حسن نواياه، فرد الأمير «فيصل» على الشريف بالطريقة والأسلوب التقليديين بأن أرسل إليه أخاه «عبد الله بن تركي» وحمله بالهدايا، لكن «ابن عون» رفض الهدايا بناءً على نصيحة أسداها إليه أشخاص مغرضون كانت رغبتهم الجامحة إذكاء نار الصراع بين الطرفين. قد قدم الشريف «ابن عون» هدايا شخصية قيمة لـ «عبد الله بن تركي» وطلب منه أن يخبر أخاه بأن عليه أن يأتي إليه شخصياً.

وبعد أن قطع «عبد الله بن تركي» مسافة وأصبح في مأمن من مطاردة قوات الشريف له، أعاد الهدايا إلى الشريف «ابن عون»، وأرسل إليه رسالة

تحد. وعندما وصل إلى «شقراء» أرسل ليعلم الأمير «فيصل» بما جرى معه، وبقي هناك بانتظار الأوامر من «فيصل». فسر الأمير «فيصل» سلوك الشريف «ابن عون» على أنه إعلان حرب، ولذلك انطلق إلى «شقراء» على رأس قوة كان قد جمعها أثناء وجوده في الرياض تحسباً للحاجة، وبعث بتعليماته إلى ابنه في «المجمعة» وأمره بالتوجه بقواته إلى نقطة التجمع. تنبه الشريف «ابن عون» لخطورة الموقف وأرسل رسولاً إلى الأمير «فيصل» الذي كان في تلك الأثناء قد وصل إلى قرية «شمس» على مشارف مقاطعة «الوشم ليبلغه باقتراحه في عقد سلام ومصالحة. وافق فيصل على هذا الطرح بشرط أن يتخلى الشريف «ابن عون» عن أي مطلب في الحكم بمنطقة «القصيم» أو في مناطق قبائل «نجد»، وكمبادرة لتلطيف الجو بين الطرفين أرسل الأمير «فيصل» إلى الشريف بعض الهدايا القيمة إضافة إلى مبلغ كبير من المال لكن الشريف «ابن عون» قدمه إلى الأتراك على أنه جزية جمعها من بعض أتباعه. على أي حال رحل الشريف «ابن عون» بقواته عن «القصيم» في شهرحزيران، وأثناء رحيله أغار على جماعة من قبيلة «مطير» في منطقة «حيد»، وعلى ما يبدو سمح للجنود الأتراك بأن يأخذوا معهم بعض الناس من أصل تركي. كان الأمير «فيصل» في الوقت المناسب يشن غارة على تجمع لجماعة «شمر» وعلى بعض البدو الذين كانوا حول موارد مياه «البنة» بالقرب من «القويعية»، وعاد «فيصل» بعدها إلى ديرته وأعطى الجنود إجازة للراحة في بيوتهم.

حدثت المجابهة الوحيدة الثانية مع طرف أجنبي خلال السنوات الأولى من حكم الأمير «فيصل» إذ اشتملت على أعمال عدائية تمت على نطاق

محدود بينه وبين «آل خليفة» حكام البحرين. ففي عام ١٨٤٣ قاد الأمير «فيصل» قواته باتجاه شواطئ الخليج وبالتحديد في جوار «القطيف»، وشن غارات ناجحة على قبائل «المناصير» و «المرة» و «بني هاجر»، وبعدها التفت إلى «الدمام» التي كانت تحت سيطرة جماعات بحرينية بزعامة «عبد الله بن خليفة» وهو أحد أعضاء الأسرة الحاكمة في البحرين. وبعد حصار دام لأقل من أسبوع استسلم المدافعون عن «الدمام» بدون أية شروط واستولى الأمير «فيصل» على كافة المؤن والذخائر التي كانت في القلعة، ووضع فيها حامية تقدر بمائة رجل وزودها بكميات كبيرة من العتاد والمؤن لمقاومة أية محاولة يمكن أن يقوم بها البحرينيون لاستعادة القلعة. في تلك الأثناء دارت معركة بين جماعة «العجمان» و«سبيع» من ناحية وبين جماعة «مطير» تحت زعامة «محمد الدويش» من ناحية أخرى. تمكنت جماعة «العجمان» و«سبيع» من إلحاق الهزيمة المنكرة بجماعة «محمد الدويش» الذي لجأ إلى «الدمام» ليطلب من الأمير «فيصل» أن يعوضه عن الخسائر التي تكبدتها قواته علماً بأن جماعة «مطير» كانت هي المعتدية باعتبار أن الاشتباك حدث في أراضي قبيلة «بني خالد». وعلى أي حال وبدافع الجود والكرم قام الأمير «فيصل» بتعويض «محمد الدويش» عن جزء كبير من خسارته وخسارة رجاله، ودفع له التعويضات من ممتلكات الدولة التي تم الاستيلاء عليها مؤخراً من قلعة «الدمام». سار الأمير «فيصل» بعد ذلك إلى «الهفوف» وجلس فيها فترة طويلة وكانت الوفود خلال تلك الفترة تأتي إليه من أماكن بعيدة وصلت حتى من منطقة عُمان، وأثناء إقامته هناك قام بترتيبات لإرساء إدارة ناجحة في منطقة الخليج، إذ عين «أحمد السديري» على إمارة «الأحساء» كما عين

«عبد الله بن سعد المداوي» حاكماً على «القطيف».

ومع بداية صيف عام ١٨٤٤ وإثر عودة «فيصل» إلى الرياض قام الأمير «فيصل» بإرسال حملة إلى «عُمان» تحت قيادة «عبد الله بن بتال المطيري» الذي رافقه فيها الشيخ «ناصر بن علي العريني» الذي كان في تلك الفترة قد عين قاض على «البريمي».

وفي العام التالي تسلم «عبد الله المطيري» قيادة القوات الإقليمية في منطقة «الأحساء» التي كانت تحت إمرة «أحمد السديري». وعند نهاية عام ١٨٤٧ أرسل الأمير «فيصل» حملة أخرى إلى «عُمان» بقيادة «عبد الرحمن بن إبراهيم» (من منطقة «منفوحة») وزوده بتعليمات مفادها أن عليه أن يرسخ أقدامه في منطقة البريمي. وأرسل معه حامية عسكرية كانت مرابطة في منطقة «الأحساء». ومباشرة بعد تلك المرحلة اندلعت المشكلات في تلك المنطقة بسبب المكائد بين زعماء القبائل المحليين، وهنا وجد الأمير «فيصل» نفسه مضطراً لأن يرسل حملة أخرى قادها «سعد بن مطلق المطيري» وهو ابن عم «عبد الله بن بتال». قام رجل يدعى «ابن طحنون» وكان الرأس المدبر لتعكير الأمن هناك بأن حشد مؤيديه وخطط لنصب كمين لتلك الحملة وهي في الطريق إلى هناك؛ فما كان من بعض الزعماء والموالين للأمير «فيصل» هنا مثل سلطان بن حثد حاكم الشارقة ومكتوم من دبي إلا أن أرسلوا رسولاً إلى قائد الحملة لينبهوه عن أمر ذلك الكمين، ولسوء الحظ لم يتمكن ذلك الرسول من لقاء تلك القافلة فوقعت وبشكل مباشر في شباك الكمين، وعلى الفور نشبت معركة ضروس بين الطرفين وتمكن رجال «ابن طحنون» من إلحاق هزيمة نكراء برجال تلك القافلة، ولقي عدد منهم مسيره من هناك

حتى «الشارقة». وبعد هذه المعركة التي أطلق عليها اسم «معركة العنيقة أو كثبان الرمال»، خطط «سعد المطيري» وأتباعه لشن هجوم على منطقة البريمي، وتمكنوا من الاستيلاء على قلعة «ابن طحنون» وعلى كافة المواقع الرئيسية في تلك الواحة، واستعادوا كل الغنائم التي استولى عليها «ابن طحنون» بسبب ذلك الكمين. وكان لا بد من معاقبة «سعد المطيري» على ارتكابه هذه الكارثة، فقام الأمير «فيصل» في شهر تشرين ثاني من عام ١٨٤٩ بإعفائه من منصبه كقائد للقوات.

سيتضح فيما بعد أن مناطق ساحل الخليج استحوذت خلال هذه السنوات على الجزء الكبير من تفكير الأمير «فيصل»، إذ كان هناك حاجة ماسة للتنبه من احتمال قيام بعض العناصر بالإخلال بالأمن بدءاً من مناطق «البريمي» في الجنوب إلى مناطق «القطيف وبني خالد» في الشمال. اقترفت جماعة «العجمان» في نهاية عام ١٨٤٢ بقيادة «فلاح بن حثلين» عملاً مروّعاً بأن هاجمت قافلة للحجاج كانت مارة بإقليم «الأحساء» ومتوجهة إلى مكة، على الرغم من أن القافلة كانت برفقة «حزام بن حثلين» بصفته دليلاً لها وضامن لسلامتها، وبالتالي هو أحد أبناء أسرة «فلاح» نفسه.

توجه الأمير «فيصل» بنفسه إلى «حريملاء» التي كان من المقرر أن تكون مقر تجمع قواته بما فيها قوة رجال «حائل» التي كانت تحت إمرة «متعب بن عبد الله بن رشيد» الابن الثاني للصديق القديم للأمير «فيصل». وأثناء مسيرة عبر منطقة «القصيمة» قرر «فيصل» أن يقيم مقراً لقيادة قواته في منطقة «مجزل» على الطرف الشرقي من منطقة «طويق»، وهناك قدمت إليه جماعات كبيرة من قبيلة «العجمان» المعتدية وأعلنت عن رغبتها في

الانشقاق كلياً عن جماعة «فلاح بن حثلين»، وعليه منحهم «فيصل» السلامة شريطة أن يجلوا كلياً عن مناطق قبيلة «بني خالد» التي كان «ابن حثلين» قد تمركز فيها استعداداً للقتال. صدرت الأوامر إلى جماعة «مطير» بقيادة «حميدي بن فيصل الدويش» لاحتلال منخفض «السر»، وهرب «فلاح» لينضم إلى زعيم قبيلة قحطان «محمد بن هادي بن قزملة» في معسكره بمنطقة «خفس»، لكنه عندما سمع بقدوم قوات الأمير «فيصل» لمهاجمته فر إلى «مليبة» التابعة لقبيلة «مطير» وطلب اللجوء إليهم والدعم منهم، إلا أن «منديل بن غنيمان» زعيم تلك الجماعة رفض طلبه وأرسل يستشير رئيسه «حميدي الدويش» بذلك الخصوص، فما كان من «حميدي» إلا أن توجه شخصياً إلى هناك ووضع «فلاح» تحت الحماية لحين انتهاء المفاوضات مع الأمير «فيصل» بخصوص مستقبله. أصر «فيصل» على أن يعاقب «فلاح» على الغارة التي شنها على قافلة الحجاج فأرسل مع «حميدي» قوة لاعتقاله، وفعلاً نقل «فلاح» كأسير إلى «الهفوف» وتم تسليمه إلى «أحمد السديري» الذي أمر بقتله. هذا وتم اعتقال كبار الذين شاركوا معه في الغارة على تلك القافلة وفي اعتداءات أخرى مثل قطع الطرق والسرقات. وكان من المعتقلين «مشعان بن هذال» و «هادي بن مذواد» وأعدموا جميعاً، واستسلمت القبيلة بأسرها إلى الأمير «فيصل» وأجبرت على إعادة كل الغنائم التي سلبتها. وبالمناسبة يشير «ابن بشر» إلى أنه حظي شخصياً بشرف المثول أمام الأمير «فيصل في معسكره في «مجزل» أثناء عمليات استرداد الغنائم. وفي إشارته تلك يقدم لنا «ابن بشر» صورة حية عن الأعمال الروتينية لمجلس الأمير «فيصل» من أداء مستمر للصلاة

والخطب والمواعظ التي كان الهدف منها إراحة أعصاب المحاربين.

ومع وصول الحملة التأديبية هذه إلى نهاية ناجحة في أواخر عام ١٨٤٦، أصبحت الأجواء الآن مهيئة للشروع في محاولة جادة لتسوية الحسابات مع حكام البحرين، لأن نشاطاتهم وادعاءاتهم بحقهم في حكم مناطق مختلفة ممتدة إلى داخل الصحراء العربية (والتي يمكن أن يحققوها رغم أنها غير معقولة) أصبحت مصدر إزعاج واضطرابات في المنطقة. وبسبب الاحتلال الأجنبي السابق لمناطق مختلفة من الصحراء العربية، لم يجد الأمير «فيصل» نفسه مستعداً للاهتمام مرة أخرى بالمناطق الشرقية إلا في أواخر عام ١٨٥٠. وفي ذلك العام استدعى الأمير «فيصل» ابنه «عبد الله» الذي كان في «شقراء» يراقب تطور الأوضاع في «القصيم»، وطلب منه أن ينضم إلى قواته في الناحية الغربية من صحراء الدهناء. وهناك التقت تجمعت القوات وقادها الأمير «فيصل» إلى إقليم «الأحساء» وعرج في الطريق على موارد مياه النحيبية» وعسكر بقواته في «الحليوين» الواقعة بين الواحة الرئيسية هناك و«القطيف». وهناك انضمت إلى قواته جماعات من «الأحساء والقطيف» وفرق من قبائل «بني خالد وبني هاجر والمرة» ومقاتلين من فخذ قبيلة «العجمان» الموالية له بزعامة «حزام بن حثلين». كانت نية الأمير «فيصل» من حيث المبدأ معالجة الوضع في البحرين بسبب المشكلات الداخلية في تلك الجزر وبسبب عدم دفعهم الزكاة المفروضة عليهم. ورفض الأمير «فيصل» المحاولة التي قام بها حكام «آل خليفة» والتي استهدفت تهدئة غضبه، وسار بقواته باتجاه شبه جزيرة قطر وأقام معسكره هناك في منطقة يقال لها «عريق السلوي»، وكان يهدف احتلال قلعة «البدع» الواقعة في

ميناء «الدوحة» والتي كان يسيطر عليها أخو شيخ البحرين المدعو «علي بن خليفة»، وكان شيخ البحرين قد زود (وبسخاء» الحامية في تلك القلعة بالمؤن والذخيرة لمواجهة أية مشكلة. أمر «فيصل» ابنه «عبد الله» بأن يضرب حصاراً حول القلعة، لكن «علي بن خليفة» سبقه إلى استخدام القوارب الشراعية التي كانت تحت تصرفه في الميناء. وبادر بالهرب من الحامية تاركا الأهالي يواجهون الحصار. استسلم الأهالي في بلدة «الدوحة» لـ «عبد الله» الذي استولى بقليل من الجهد على أكبر مخازن المؤن فيها، ناهيك عن طرد وترحيل جماعة «آل خليفة» من آخر معقل لهم على الساحل. لم يكتف الأمير «فيصل» بذلك الإنجاز، بل تحرك بقواته باتجاه آبار «المسيمر» القريبة من الساحل، وهناك وجد ما لا يقل عن ثلاثمائة قارب فقام بتجهيزها استعداداً لهجوم بحري على البحرين بعينها. وضع الأمير «فيصل» تلك القوة تحت إمرة اثنين من أبناء «عبد الله بن خليفة» المنفيان عن البحرين واللذان كان برفقته في تلك الحملة. ناشد زعيم البحرين أمير أبو ظبي «سعيد بن طحنون» أن يقدم له المساعدة (سبق أن أشرنا إليه كبطل لمعركة «عنيف»)، وسرعان ما لبى «ابن طحنون» المناشدة وتوجه بقوة بحرية كبيرة للتدخل في ذلك الصراع، وعندما اقترب من قطر بدا وكأنه فقد الشجاعة على الاستمرار في التقدم، وأرسل رسالة إلى الأمير «فيصل» اقترح فيها إجراء محادثات للتوصل إلى سلام دائم بينه وبين عائلة «آل خليفة» أصر الأمير «فيصل» على أن يمثل «ابن طحنون» بين يديه شخصياً، وفعلاً تم ذلك بضمانات شخصية قدمها «أحمد السديري» وتعهد بموجبها بأن يكفل سلامته، وبعد محادثات تمت بين الطرفين وافق الأمير فيصل على عقد سلام

مع حكام البحرين شريطة أن يدفعوا الجزية المترتبة عليهم، علماً بأنه لم يشدد كثيراً على وجوب أن يدفعوا له ضمانات بعدم الاعتداء وتعويضات عن المهام والاستعدادات التي قام بها. وهكذا تمت تسوية الأمور بشكل يرضي الجميع دون إراقة قطرة دم واحدة من بدء الحملة حتى نهايتها.

صادفت عودة «فيصل» عبر كثبان الصحراء صيفاً إما في شهر حزيران أو شهر تموز أو تموز من عام ١٨٥١، وكان من الممكن أن يموت العديد من أفراد جيشه بسبب حرارة الشمس لولا أن المطر وبشكل غير اعتيادي هطل بغزارة وسارت على إثره السيول في كافة أودية «الأحساء». ومن بين الهواجس التي شغلت فكر الأمير «فيصل» وأخرت إتمام التسوية السليمة مع حكام البحرين، هو الوضع في «القصيم» الذي ظهر إثر الغزو الفاشل الذي قام به الشريف «ابن عون» عام ١٨٤٧. فسامح الأمير «فيصل» زعماء منطقة «القصيم» وغفر لهم الدور الذي قام به في ذلك الحدث، إلا أنه كانت لديه بعض الشكوك بما يضمره بعضهم من عدم الولاء له. أما بخصوص موضوع أمير «عنيزة» (إبراهيم بن سليمان بن زامل) فاستغلت جماعات معادية الشكوك لدى الأمير «فيصل» وقامت بأعمال عدائية في نفس المدينة نجم عنها أن قرر الأمير «فيصل» عزل الأمير «إبراهيم بن زامل» وعين مكانه «ناصر بن عبد الرحمن السحيمي».

عين الحاكم الجديد أخاه «مطلق الضرير» قائداً على القلعة الكبيرة، ووضع فيها حامية من الجنود تحت إمرته، لكن الأهالي قبلوا في الظاهر على الأقل الحاكم الجديد. لم يكن ابن أخو الأمير «إبراهيم بن زامل» والمدعو «عبد الله بن يحيى بن سليمان» ورفاقه ليذعنوا لذلك الاستخفاف بأسرتهم،

ففي إحدى الليالي قام أتباعهم بالهجوم على «ناصر السحيمي» وأطلقوا عليه ثلاثة عيارات نارية أصابته إحداها بجرح بليغ. أدرك «عبد الله بن يحيى» أن الحراسة حول القلعة كانت مشددة للغاية، فهرب إلى «بريدة» وطلب حماية أميرها «عبد العزيز آل محمد»، الذي أرسل بدوره إلى الأمير «فيصل» يطلعه على ذلك التطور، وحاول تبرير الجريمة على أنها استجابة للتصرف الاستفزازي الذي قامت به جماعة «السحيمي». على أي حال أصر الأمير «فيصل» على أن يرسل «عبد الله» إلى الرياض، وفعلاً بقي هناك قيد انتهاء التحقيق في تلك المسألة.

حدث أيضاً أن قام أتباع «ضرير» بأن أنزلوا ضرباً مبرحاً بأحد أتباع عائلة «الزامل» ومات على إثره. وبعد أن شُفي «ناصر» من إصابته أقدم على قتل «إبراهيم بن سليمان بن زامل»، وتمكن أخو «إبراهيم» من الفرار إلى «المذنب». وحيال هذا الحدث أصدر الأمير «فيصل» أمراً يقضي بأن يحضر «السحيمي» إلى الرياض ويحاكم وفق مقتضيات الشرع وأمرته المحكمة بدفع الفدية المتبعة في حالات القتل وجرح الأشخاص. خشي الأمير «فيصل» أن تؤدي الأعمال العدائية بين الإخوة المسلمين إلى مزيد من التعقيدات، وربما إلى مناشدة شريف مكة للتدخل، فما كان منه إلا أن أقال «السحيمي» من منصبه وأرسل «عبد الله المداوي» (حاكم «القطيف» السابق) ليتسلم زمام الحكم في «عنيزة».

بعد أن رفض «مطلق الضرير» أن يجلي قواته عن القلعة، تقدم «عبد الله المداوي» بقواته إلى «بريدة»، وعندما وصلت أخبار هذه التطورات إلى الرياض قام «السحيمي» بإقناع الأمير «فيصل» بأن الطريقة الوحيدة لإنهاء

المشكلة في «عنيزة» هي أن يعيد تعيينه في منصبه السابق، وأن يدعمه بقوة عسكرية ترابط عند حدود «القصيم» الجنوبية. وصل «السحيمي» إلى «عنيزة» ووجد أن أهاليها كانوا في حالة تمرد وعلى استعداد لتحدي سلطة الأمير «فيصل»، فما كان منه إلا أن وقف إلى جانبهم. لكن كان الجميع يشعرون بأن فرصتهم بالنصر كانت ضئيلة جداً ما لم يقنعوا كافة مناطق الإقليم وبالتحديد أمير بريدة «عبد العزيز الحميد» بالانضمام إلى صفوفهم. وعليه عرضوا على أمير «بريدة» أن يقود قوات المنطقة ووافق «عبد العزيز الحميد» على ذلك شريطة أن لا يفتر الحماس ويتراجع الناس عن موقفهم إذا سبق السيف العذل، وقرروا الثورة ضد الأمير «فيصل».

وعند حوالي بداية شهر نيسان (ابريل) عام ١٨٤٩ تحرك الأمير «فيصل» من الرياض على رأس قواته وكان معه ابناه «عبد الله» و «محمد»، وانضم إليه ابنه الثالث (الذي كان قد عينه أميراً على «الخرج» عام ١٨٤٧) بقواته وهو في الطريق إلى هناك رافقه في تلك الحملة أيضاً أخاه «جلوي» والشيخ «عبداللطيف» (وهو من أحفاد محمد بن عبد الوهاب»، وبقي «عبد الله بن تركي» (أخو الأمير «فيصل») في الرياض بصفته نائباً عنه في الحكم. سار الأمير «فيصل» بقواته على طريق «بنبان» و «الحسي» ومكث فيهما بعض الوقت ليرتب قواته، وهناك وصلته أخبار تؤكد تمرد أهالي «القصيم» عليه. تابع «فيصل» مسيره باتجاه «سدير» و «المجمعة»، وزار في تلك المرحلة من المسير المؤرخ «ابن بشر» الذي في سياق سرده للأحداث بأنه كان من بين الأشخاص العديدين كانوا في خيمة الأمير «فيصل» بعد صلاة العصر، ويضيف بأن أحد المشايخ قام هناك بقراءة مقطع من موضوع التوحيد بقلم

«محمد بن عبد الوهاب» وكان ذلك المقطع يتعلق بموضوع «الكفر».

وفي اليوم التالي سار الأمير «فيصل» بقواته من «المجمعة» باتجاه «الجرنية» في سهل «الحمادة» ومن هناك مر بـ «أشقير» وكذلك بـ «سدير»، وقضى بعض الوقت في «ساجر» قبل أن يتابع مسيره باتجاه «المذنب». وصل المذنب ومنها أرسل بقوة كبيرة تحت إمرة «محمد بن أحمد السديري» (حاكم منطقة «سدير» لاحتلال واحة «العوشزية» التي تقع على مسافة قصيرة من «عنيزة»، بعد ذلك أرسل الأمير «فيصل» إنذاراً إلى أهالي «القصيم» يحذرهم فيه من الاستمرار في تمردهم، فما كان منهم إلا أن أرسلوا إليه أحد وجهاء «بريدة» المدعو «مهنا بن صالح» ليناقش الوضع معه.

بدا «فيصل»متفائلاً من أن الأمور يمكن أن تسوى دون إراقة الدماء، لكن بعد رحيل «مهنا» ليطلع المتردين على ما دار بينه وبين الأمير «فيصل»، وصلت أخبار إلى «فيصل» مفادها أن بدواً من «الدهامشة» من «عنزة» في «الطرفية» الواقعة إلى الشرق من «بريدة» قد احتشدوا، فأرسل الأمير «فيصل» ابنه «عبد الله» على رأس قوة كبيرة للإغارة عليهم، وحذره من عدم التورط في أي أعمال عدائية ضد أي فرد من أهالي «القصيم»، وذلك لأنه سبق له أن حمل «منها» رسالة وعدهم فيها بعدم التحرش بهم. وعليه سمح رجال «عبد الله» لقافلة كانت متوجهة إلى «بريدة» بأن تمر بسلام. وصل خبر الحملة التي يقودها «عبد الله» إلى «الطرفية» الأمر الذي حمل جماعة من عرب «الدهامشة» على الفرار، إلا أن قوات «عبد الله» طاردتهم وأنزلت بهم الويلات، وتمكن فريق منهم من الوصول إلى «عنزة» ونبهوا الأهالي هناك عن الخطر القادم إليهم.

تمكن «عبد العزيز الحميد» وبسهولة من إقناع أتباعه بأن الفرصة المتاحة لنيل الحرية من سلطة الأمير «فيصل» لن تتكرر، وعليه بدأ يأخذ مواقعه على كثبان رمال منطقة «اليتيمة» الواقعة بين «الشماسية» و «الطعمية» في مجرى وادي «الرّمة»، وتقدر قوته تلك بألف وخمسمائة رجل. وفي تلك الأثناء أرسل «عبد الله» رسالة من «الطرفية» إلى والده يبلغه فيها بالهزيمة التي ألحقها بعرب «الدهامشة»، إلا أن الشخص الذي كان يحمل الرسالة شاهد آثار قوات كبيرة متجهة شرقاً، فعاد بالرسالة إلى «عبد الله» ليخبره بما شاهد. أشار مستشاروه عليه بأن يترك بينه وبين المتمردين مسافة طويلة أثناء توجهه بقواته إلى الأمير «فيصل»، إلا أن «عبد الله» أصر على مداهمتهم بالرغم من تفوقهم عليه في العدد، وأمر يدفع بالجمال والأغنام التي تم الاستيلاء عليها من عرب «الدهامشة» باتجاه مواقع العدو لتكون بمثابة ستار لقوة الفرسان الضاربة، وفعلاً تمكنوا بهجومهم العنيف من حسم الموضوع والانتصار عليهم في نفس ذلك الموقع. حيث تراجع المتمردون لكن سرعان ما بدأوا في الفرار عن بكرة أبيهم. هرب «عبد العزيز الحميد» لينجو بحياته ولجأ إلى قلعة «الطعمية» ومن هناك توجه إلى «عنيزة» بعد أن علم بأن «عبد الله» توقف عن مطاردة الجماعات الفارة وعاد إلى «المذنب». سبقته أخبار ذلك النصر إلى والده لتخفف من قلقه، علماً بأنه قد أمر بإرسال بعض التعزيزات لنجدته. كانت قوات «فيصل» تحتفل بذلك النصر بالأغاني والرقصات والأهازيج، إلا أن أمرهم بالكف عن ذلك والقيام بالصلاة والشكر لله على رحمته بالعباد.

نعت كل قرية في «القصيم» عملياً موت بطل من أبطالها، لكن فرقة المقاتلين من «بريدة» تكبدت العدد الأكبر من القتلى والجرى، إذ بلغ عدد

القتلى من بريدة حوالي مائة قتيل.

دخل «عبد العزيز» عنيزة يتبختر على صهوة جواده وهو يردد الأهازيج مع أتباعه ليشجع المقاتلين على الاستمرار في القتال، إلا أنه سرعان ما أدرك أن الويلات التي ألمت بالأهالي كانت كبيرة وكانوا على استعداد للاستسلام للأمير «فيصل»، ولذلك توجه إلى «بريدة». لجأ «السحيمي» إلى «طلال بن رشيد» الذي كان في ذلك الوقت في «قرارة» يستعد لتقديم الدعم إلى «فيصل» ضد المتمردين. وبالمناسبة تجدر الإشارة إلى أن «طلال» كان قد خلف والده «عبد الله بن رشيد» أميراً على «حائل»، وكان والده قد توفي في شهر آيار من عام ١٨٤٧ أثناء غزو الشريف لمنطقة «القصيم».

عقد أهالي «عنيزة» اجتماعاً» ليقرروا الإجراء المستقبلي الذي يتوجب عليهم أن يقوموا به، وطلبوا من القاضي «عبد الله أبو بطين» أن يتدخل ويلتمس لهم العفو من الأمير «فيصل»، فوافق «فيصل» على ذلك بنفور لكن مقابل شرط واحد وهو أن يضمن «محمد بن عبد الرحمن بن البسام» رئيس أحد العائلات النبيلة في البلدة أي نكوص عن الاتفاق يمكن أن ينجم من طرفهم.

تم ترتيب الأمور بسهولة ودخل «فيصل» عنيزة ليقدم الأهالي له الطاعة، وبالتالي ليصفح عنهم عدم ولائهم وتمردهم في ذلك الإقليم. بعدها أرسل الأمير «فيصل» رسالة إلى «عبد العزيز الحميد» يخيره بين السلم والحرب، وكان «عبد العزيز الحميد» قد قرر الهرب إلا أن أقاربه ووجهاء «بريدة» أقنعوه بأن يدعهم يتشفعون له عند «فيصل»، وبعد مناقشات وتدخل من قبل شخصيات كبيرة في المنطقة وافق الأمير «فيصل» على أن يصفح عما

كان وقرر أن يعينه حاكماً على المدينة، ولكن حرصاً منه بأن لا تقع أحداث مماثلة في المستقبل في بيئة غير مستقرة ولا يمكن الاعتماد عليها، قرر الأمير «فيصل» أن يعين «جلوي» (أخو عبد العزيز الحميد) حاكماً عاماً على كل الإقليم، وأن يكون المقر الرئيسي للقوات في القلعة الكبيرة في «عنيزة». وكان عبد العزيز الحميد أول أجنبي وأمير يشغل منصب احتجز هناك ليشغله أحد الوجهاء المحليين. وبالمناسبة فإن صاحب المنصب الحالي كان الجد الأول لـ «عبد الله بن مساعد» الذي احتجزه بدوره عمه المشهور والمعروف باسم «عبد الله بن جلوي» ومن قبله والده «عبد العزيز بن مساعد» الحاكم الحالي لـ «حائل»، وهكذا أدخل الأمير «فيصل» نظاماً إدارياً جديداً طبق بشكل متقطع وعلى فترة تزيد على مائة عام.

وبعد توقف للاستراحة في «عنيزة» دام لمدة شهر، عاد الأمير «فيصل» إلى الرياض وقابل في طريقه إلى هناك «طلال بن رشيد» في منطقة «المذنب». وفي شتاء العام التالي ١٨٤٩/ ١٨٥٠ انشغل الأمير «فيصل» مجدداً بحملة أعدها للإغارة على تجمع لرجال قبائل «عتيبة» في منطقة «جراب» في الشمال، ووصلت أخبار الحملة التي كان يعدها الأمير «فيصل» إلى قبيلة «عتيبة»، فما كان منهم إلا أن تراجعوا إلى منطقة «قبة» وانضموا إلى قوة كبيرة من قبيلة «مطير» كانت متجمعة هناك، وعند اقتراب قوات الأمير «فيصل» منهم تقدم زعماء وقادة «الدويش» وقدموا لـ «فيصل» الهدايا وحصلوا على عفو عام منه عن كل الأعمال التي قاموا بها في الماضي. بعدها توجه الأمير «فيصل» نحو «القصيم» وعند موارد مياه «أبا الدور» شمالاً انضمت إليه قوات «القصيم» التي كانت تحت إمرة «جلوي»، وبسبب

هذه التحركات بدا الذعر على أمير بريدة «عبد العزيز» ولم يتمكن من السيطرة على أعصابه ففر مع أبنائه إلى «مكة» تاركاً وراءه نساءه وكل ممتلكاته الشخصية وصل «فيصل» إلى «بريدة» وجمع كل ممتلكات الحاكم الفار وأخذ معه أيضاً ما بقي من أعضاء أسرته، وعين أخا الحاكم الفار المدعو «عبدالمحسن الحميد» حاكماً على «بريدة»، وبعد ذلك عاد إلى الرياض.

استقبل شريف مكة الحاكم الفار «عبد العزيز» بالكثير من التعاطف والود ومشاعر الصداقة، لكن سرعان ما تغيرت مشاهره تجاهه عندما أدرك أن الهدايا البسيطة التي قدمها الهارب «عبد العزيز» كانت كل ما يملكه في هذه الدنيا، وبدأ يراسل الأمير «فيصل» بخصوص ضيفه الغير مرغوب فيه. وطلب «عبد العزيز» من الشريف المساعدة، إلا أن الشريف أجابه بأن الجنود الذين تحت إمرته لا يذهبون للقتال ما لم يدفع لهم مقدماً.

في هذه الأثناء - أي عند حوالي نهاية شهر تشرين الأول عام ١٨٥٠ - انطلق «عبد العزيز بن فيصل» بقوة كبيرة من الرياض تعاظم تعدادها بسبب القوات التي التحقت بها أثناء المسير، وتوجه بها وجهة الحجاز في حملة قتالية شاملة. وفي الطريق استراح لفترة من الزمن في «القويعية» واستمر بعدها للبحث عن معسكرات زعيم قبيلة عتيبة «مرزوق الهيضل» وأثناء مروره بجوار آبار «الشبكة» وموارد مياه «مصلب» في مرتفعات «النير» التف «عبد العزيز بن فيصل» على «الحنايج» وأوشك أن ينال من طريدته عند آبار «ثعل» بمنطقة «الحزم»، إلا أنهم سبقوه بمغادرتها قبل وصوله بقليل لعلمهم بتقدمه، وانضموا إلى قوات «ابن ربيعان» أحد مشاهير زعماء قبيلة «العتيبة» في منطقة «نفي» طالبين منه الحماية.

سبب تقدم قوات «عبد العزيز بن فيصل» إلى الحجاز وبلوغها منطقة «حرة الكشب» الذعر بين الأهالي هناك، وخشي شريف مكة أن يؤدي وجود «عبد الله المحمد» هناك إلى إذكاء نار المشكلات، ولذلك بدأ يصعب الأمور على الأمير الهارب، فأدرك الأمير الفار «عبد الله المحمد» أن توقعاته في أن يقدم له شريف مكة الدعم لم تعد في محلها، فطلب من الشريف أن يتوسط له لدى الأمير «فيصل» ليصفح عنه وليسمح له بالعودة إلى «بريدة». كان الأمير «فيصل» في ذلك الوقت في المنطقة الشرقية على سواحل الخليج يعالج المشكلات المتعلقة بجماعة البحرين. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الأمير «فيصل» كان رجلاً شفوقاً رحيماً فوق العادة، صبوراً على الأذى. وعلى أي حال فقد قبل «فيصل» شفاعة شريف مكة شريطة أن يأتي «عبدالعزيز الحميد» إلى «عنيزة» ويلتحق بالحملة التي كان يعدها «جلوي» للتحرك باتجاه «سلوى» دعماً للعمليات العسكرية التي كان «فيصل» يقوم بها. وفعلاً وصل «عبد العزيز المحمد» إلى معسكر الأمير «فيصل» في شهر كانون الثاني عام ١٨٥١، وبعد أن اعترف بكل أخطائه وأعرب عن ندمه على كافة الجرائم التي اقترفها بحق سمو الأمير، صفح «فيصل» عنه ونصبه من جديد حاكماً على «بريدة».

وفي بداية العام التالي انتشرت الشائعات بأن «عباس بن طوسون» حفيد «محمد علي باشا» والذي كان في ذلك الوقت معيناً في منصب الخديوي على مصر، كان يعد العدة لغزو مناطق «نجد» مجدداً. والحقيقة أنه بسبب تواجد «عبد الله بن فيصل» ومعه القوات السعودية في المناطق المجاورة لمشارف الحجاز، تم إرسال أعداد كبيرة من القوات التركية (العثمانية) إلى

«المدينة». كانت الاشتباكات التي دارت بعد وصول هذه القوات من النوع المتقطع الاعتيادي، علماً بأن أبعاد أحد الاشتباكات التي حدثت في شهر آيار من ذلك العام وصلت حتى منطقة «الدفنية». وكإجراء احتياطي حشد الأمير «فيصل قواته وسار بها باتجاه «المجمعة». وفي شهر تموز تسربت بعض الأخبار التي تقول بأن «عباس بن طوسون» كان قد بعث بجيش كبير إلى إقليم «عسير» وأصدر أمراً إلى القوات في «المدينة» بالانضمام إلى ذلك الجيش لتنفيذ العمليات المزمع القيام بها في تلك المنطقة. وحيال هذه التطورات عم الهدوء مناطق «نجد». وبعد أن انتهى الأمير «فيصل» من الإغارة على جماعة من قبيلة «مطير» في منطقة «أم الجماجم» أثناء عودته إلى الرياض، أصدر أمراً بإعطاء القوات استراحة للذهاب إلى أسرهم.

لم يتوجس الأتراك خيراً من حملتهم للنيل من قبائل «عسير»، فسارع زعيم هذه القبائل «عيضة بن مرعي» وربط قضيته بقضية الأمير «فيصل»، فأرسل إليه مندوباً يبلغه بالأخبار السارة ويقدم له الهدايا التي تمثل حصة الأمير «فيصل» من الغنائم، لكن مشاغل الأمير «فيصل» بأمور المنطقة الشرقية لم تدعه يفكر في أمور الحجاز حتى لو أنه كان راغباً في الاهتمام بها.

قضى الأمير «فيصل» جزءًا من شتاء عام ١٨٥٢/ ١٨٥٣ في الصحراء، وشن من معسكره في «رماح» خلال تلك الفترة غارة على جماعات قبيلة «مطير» في منطقة «الوفرة»، وكان الأمير «فيصل» قد عهد إلى «عبد الله» مهمة التعامل مع جماعات من قبيلة «المرة» كانت تعكر صفو الأمن في منطقة «الأحساء». حدث أيضاً أن تمكن «عبد الله» من الاستيلاء على قافلة

كانت محملة بالبضائع الثمينة قادمة من «العقير» في طريقها إلى «الهفوف» وأوقع بين رجالها العديد من الإصابات والخسائر في الأرواح، وذلك أثناء توقفها في معسكر «النعيرية». تقدم «عبد الله» بعد ذلك إلى منطقة «سلوى» وهناك أغار على جماعة «النعيم» القطرية، كما أغار على جماعات من قبيلة «بني هاجر» وجماعات «المناصير» التي كانت تشاركها في نشاطاتها، وهزمهم جميعاً واستولى على الغنائم منهم. أذن «عبد الله» بعد ذلك لفريق من قواته بالتمتع بفترة راحة، في حين سار ببقية القوة إلى «عُمان» ليثبت نفسه وليتأكد من أن الأمور في ذلك الإقليم كان على ما يرام، خاصة أنه تلقى أخباراً عن وجود نزاعات داخلية كانت تحدث هناك بشكل متقطع، ولم يرجع «عبد الله» من حملته تلك إلا في شهر أيلول عام ١٨٥٣. وصلت في هذا التاريخ (أو ربما في بداية العام التالي) إلى الرياض أخبار اغتيال «عباس باشا» في مصر، وعلم في الرياض أيضا أن عمه «سعيد باشا» ابن «محمد علي» كان قد عين في منصب الخديوي على مصر.

حدث في منطقة «القصيم» وبالتحديد في شهر آيار من عام ١٨٥٤ تفجر جديد للمشكلات واستحوذت على كل اهتمام الإمام «فيصل». تمرد أهالي «عنيزة» على «جلوي» وطردوه من المدينة، فما كان منه إلا أن لجأ إلى «بريدة» وبعد فترة قصيرة تبعه الشيخ المشهور «عبد الله بن عبد الرحمن أبو طين» الذي اشمئز من الشقاق والنزاعات المزمنة الناجمة عن مركزه الديني.

ونتيجة لتلك الأحداث تمكن «عبد الله بن يحيى بن سليمان» وأسرته فرع

من أسرة [1] السليم من السيطرة وحكم عنيزة، وعندما علم الأمير «فيصل» بتصرفه حشد جيشه وأرسل قوة كبيرة تحت إمرة «عبد الرحمن بن إبراهيم» (من منطقة «منفوحة» إلى «بريدة»، وأمره أن يحاصر «عنيزة» وأن يعزلها عن بقية العالم. وفي نهاية شهر آب أرسل الأمير «فيصل» ابنه «عبد الله» إلى «شقراء» وأمر الوحدات المقاتلة هناك بالانضمام إليه، وبعد مضي حوالي أسبوع من الزمن شن «عبد الله» غارة قوية على قرى وادي «الرمة» وعلى واحات النخيل التي يمتلكها أهالي «عنيزة»، واستولى على كل ممتلكاتهم وماشيتهم، وقتل حوالي عشرة رجال من الأهالي، وفي تلك الأثناء تدخلت قوة من «عنيزة» ودارت اشتباكات حامية أجبرت «عبد الله» على التراجع إلى «العوشزية» ومن هناك توجه إلى «الربيعية» التي اتخذ منها مقراً لقواته بشكل مؤقت. وفي تلك المنطقة انضم إليه «طلال بن رشيد» ومعه قواته من «حائل».

بدأ «عبد الله» في هذه المرحلة يناور لمهاجمة «عنيزة» بالذات، لكن المناوشات الملازمة لمثل هذه الحالة تعاظمت لدرجة أن «عبد الله السليمان» قرر السعي من أجل السلام فأرسل إلى الأمير فيصل يناشده الصفح والسماح، لكن الأمير «فيصل» أصر على أن يأتي «عبد الله السليمان»

(١) يقول ابن عيسى في عقد الدرر «وتأمر في عنيزة عبد الله بن يحيى بن سليم وسليم لقب على سليمان بن يحيى بن علي بن عبد الله بن زامل. فأولاد سليمان بن يحيى بن علي المذكور وأولاده هم المعروفون بآل سليم رؤساء بلد عنيزة».

انظر إبراهيم بن صالح بن عيسى، عقد الدرر، فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر، منشورات مكتبة النهضة في الرياض، ط ١٣٧٣هـ ١٩٥٣، ص ١٥.

(المعلق)

شخصياً إلى الرياض فقدم عبد الله إلى الرياض وسرعان ما صفح عنه زلاته حتى إنه وافق أن يبقيه حاكماً على «عنيزة». على أي حال أصدر الأمير «فيصل» أمراً إلى «عبد الله» بالعودة بقواته، ورافقه في طريق العودة إلى الرياض «جلوي» في حين استمر معهم في المسير الشيخ «أبو بطين» إلى أن وصل إلى بلدته «شقراء». حدث ذلك في شهر كانون الثاني عام ١٨٥٥، وبعدها نعمت مناطق «نجد» بهدوء لمدة حوالي سنتين دون أية أحداث. ويذكر المؤرخ «ابن عيسى» أنه لم يحدث شيء يذكر سوى أن الأمطار الموسمية استمرت في الهطول بغزارة، ويقول «ابن عيسى» أيضاً إن القوات التركية بقيادة «مصطفى باشا» سيطرت على المشكلات التي أثارتها قبيلة «المنتفق» في العراق والتي نجمت بسبب سلوك تخريبي قام به بعض أعضاء عائلة «سعدون» الذين حاولوا أن ينفردوا بزعامة القبيلة.

وفي شتاء عام ١٨٥٦/ ١٨٥٧ أغار «عبد الله بن فيصل» على «عنزة وعتيبة» في مناطق مختلفة من أرجاء الصحراء، وبعد مرور عام قام فريق من جماعة «البرية» من قبيلة «المطير» بمهاجمة تجمع لقبيلة «عنزة» عند موارد مياه «الداث» واستولت على قطعانهم وماشيتهم. وحدث في هذا الشتاء أيضا أن توفي زعيم قبيلة «مطير» المدعو «الحميدي بن فيصل بن وطبان الدويش»، وفي نهاية آذار من عام ١٨٥٧ توفي شريف مكة «محمد بن عون» عن عمر يناهز السبعين عاماً، وخلفه في منصبه ابنه الأكبر «عبد الله». حدث أيضاً أن اشتبكت قبيلتا «عتيبة وحرب» في مرتفعات «ساق» إلى الشمال من «القصيم»، ومنيت قبيلة عتيبة بالهزيمة، وفي وقت لاحق من ذلك العام تكبدت قبيلة «عتيبة» أيضا خسائر جسيمة نتيجة الغارة التي شنها عليها

«عبدالله بن فيصل» والتي وصل بها إلى منطقة «البقوم» غرباً ومنطقة «سبيع» القريبة من «تربة» و «الخرمة»، لكن الحدث الهام الذي وقع في ذلك العام كان انتشار وباء الطاعون الذي دخل مناطق «نجد» عن طريق البحرين والأحساء، وأودى بحياة الكثير من الناس.

لن ننسى أنه خلال التمرد الذي شهدته منطقة «القصيم» عام ١٨٤٧ فر الرأسان المدبران لهذا التمرد والمدعوان «عبد العزيز المحمد» و «ناصر السحيمي» إلى «بريدة»، وسبق أن أشرنا إلى الأعمال التي قام بها «عبدالعزيز المحمد» وانتهينا إلى أن عينه الأمير «فيصل» من جديد في منصبه القديم، وكل ما نعلمه عن «السحيمي» منذ هروبه إلى «بريدة» هو أنه قتل خلال فصل شتاء عام ١٨٥٨ وسط ظروف ت تخدمنا في شرح الحزازات والعداءات بين الأسر الحاكمة في المناطق الرئيسية بوسط الصحراء العربية في تلك الأيام.

هاجر جد «ناصر» مع ابنه «عبد الرحمن» من «أشيقر» في منطقة «الوشم» ليستقروا في «عنيزة» مع عائلة من «سبيع» تعرف باسم «آل بكر» والتي كانت لها مزاعم وذرائع للفوز بالسلطة على «عنيزة» التي كان يحكمها في تلك الفترة «آل سليم» أو «سليمان». كان «يحيى بن سليم أو سليمان» أميراً على المنطقة، حينما قدمت عائلة «البكر» الدعم لناصر السحيمي على أنه المرشح الأكثر ملاءمة لتسلم الحكم. وصلت الأمور إلى مرحلة جدية للغاية فاضطر «يحيى» إلى مناقشة الوضع مع ذلك المطالب بالسلطة فعرض عليه بسخاء الخيار بين الفوز بالإمارة أو العيش طوعاً في المنفى، وتفاهما على أنه في حال وقع اختياره على الإمارة فإن «يحيى» يجب أن يرحل عن المدينة. قال

«يحيى» بأن ذلك كان الإجراء المتبع في أيام الفوضى التي شاعت في الدرعية قبل انتفاضة الأمير «تركي» وإخضاع مناطق «نجد» لحكمه. وباعتبار أن «ناصر» كان يتمتع بخصال طيبة كريمة قدر تلك التضحية التي بدرت عن «يحيى» في سبيل السلام والمجتمع، وسارع بالإعلان بأن «يحيى» سيكون - إن شاء الله - الحاكم الشرعي، كما أعرب عن ولائه له، وهكذا لم يطرأ تغيير على ترتيبات الحكم في «عنيزة».

وعندما قتل «يحيى» في «بقعاء» عام ١٨٤١ خلفه في الحكم أخوه «عبدالله بن سليم»، وقتل هذا الأخير أيضاً في معركة دارت بينهم وبين «ابن رشيد» عام ١٨٤٥ وآل الحكم من بعده إلى أخيهم الثالث «إبراهيم بن سليم»، لكن بعد مضي ثلاث سنوات على تسلمه الإمارة أقاله الأمير «فيصل» وعين مكانه «ناصر السحيمي» بناءً على اقتراح «إبراهيم بن سليم» نفسه.

أذكى هذا التطور نار الضغينة والعداء القديم بين الأسر، وحاول كل من «عبد الله» (ابن يحيى) و «زامل» (ابن عبد الله) اغتيال «ناصر» في شوارع عنيزة، كما حاولا احتلال القلعة التي كان «مطلق الضرير» (أو ناصر) مسيطراً عليها، إلا أنهما فشلا في تلك المحاولة، وقام «زامل» بضرب أحد أتباع عائلة «السليم» حتى الموت، وعندما شفي «ناصر» من الإصابة التي تعرض لها بسبب محاولة الاغتيال تلك، أقدم على ذبح «إبراهيم بن سليم». لا نعلم فيما إذا كان «ناصر» قد رجع إلى «عنيزة» خلال فترة حكم «جلوي»، لكن من المؤكد أنه كان يعيش هناك كفرد عادي ومعه أخوه «مطلق». تصادف أن تواجدا هناك عندما كان «عبد الله بن يحيى» أميراً على

عنيزة، أي مع نهاية عام ١٨٥٨ . والجدير بالذكر أن «عبد الله بن يحيى» كان قد اغتصب الإمارة إثر الانتفاضة التي قام بها ضد «جلوي» وأقر «فيصل» ذلك الوضع وثبته فيها . في أحد أيام ذلك الشتاء كان «ناصر» قد قام برحلة باتجاه «الهلالية» الواقعة في أعالي وادي «الرمة» ليتفقد أحوال خيول الاستيلاد والسباق التي كان يربيها في مزرعته هناك، فتعقبه «عبد الله» ومعه أبناء عمومته «زامل بن عبد الله وحمدان بن إبراهيم» وهاجموه وقتلوه انتقاماً لاغتياله «إبراهيم بن سليم» . فر أخوه «إبرهيم» والمدعو «مطلق» إلى ديرته «أشيقر» وبقي فيها إلى أن مات عام ١٨٦١ دون أن يحاول الانتقام لمقتل أخيه، كما أن ذلك الحدث لم يشجع أيضاً الأمير «فيصل» على اتخاذ أي إجراء .

انزعج الأمير «فيصل» من تصرف عدوه القديم «عبد العزيز المحمد» أمير «بريدة» والذي كان قد أكرمه ووجبه في أكثر من مناسبة، وفي شهر شباط من عام ١٨٥٩ استدعاه إلى الرياض، وبعد أن فاتحه بحيثيات سوء تصرفاته، أمر بإيقافه وإيقاف اثنين من أبنائه كانا قد رافقاه في القدوم إلى الرياض، ثم أمر الأمير «فيصل» أن يعين «عبد الله بن عدوان» أميراً على منطقة «بريدة» بدلاً من «عبد العزيز الحميد» .

والجدير بالذكر أن «عبد الله بن عدوان» هو من أسرة العليان التي تربطها قرابة بعيدة مع أسرة «عبد العزيز الحميد»، وعلى أي حال قامت مجموعة من أسرة «عبد الله بن عدوان» في شهر أيلول من العام نفسه باغتياله، وخلف «عبد الله بن عدوان» في منصب الإمارة شخص يشك بأنه شريك في خطة الاغتيال تلك، إلا أن الأمير «فيصل» ألقى القبض عليه وزج به في

زنزانة أحد القلاع. والغريب في الأمر أن «فيصل» عين أحد الذين شاركوا في عملية الاغتيال وهو «محمد بن غانم» ليحل محل الغرور «عبد الله بن عدوان» كحاكم على «بريدة». شجعت الشائعات التي دارت حول احتمال حدوث مشكلات في «بريدة» السجين «عبد العزيز الحميد» على أن يعرض خدماته على الأمير فيصل ليضع الأمور في «بريدة» في نصابها، وبطريقة ما قبل الأمير «فيصل» عرضه ذلك، وفي شهر كانون الأول عام ١٨٥٩ نصبه من جديد حاكماً على «بريدة» بدلاً من «ابن غانم».

وفي شهر آذار من العام نفسه كان الأمير «فيصل» يستجم في معسكره الربيعي المفضل بمنطقة «رماح»، وهناك أرسل ابن «عبد الله» للإغارة على جماعة «البرية» من قبيلة «مطير» لأنها كانت قد أساءت التصرف في بعض الأمور الطبيعية. وعليه داهمتهم قوات فيصل في منطقة «دخنة» جنوب القصيم وعاملتهم بخشونة، لكن بعد أن اعتذروا عن سوء تصرفهم وأعربوا عن ولائهم للأمير «فيصل» سمح لهم الأمير «عبد الله» بالرحيل عن تلك المنطقة. وفي الطريق وعندما اقتربوا من آبار «الشبيكية» داهمتهم جماعة من قبيلة «قحطان» وأنزلت بهم المزيد من الخسائر، كما قتلت عدداً من الشخصيات الرئيسية منهم. ارتكبت جماعة «قحطان» المنتصرة خطيئة عدم زيارة الأمير «عبد الله» الذي استاء من تصرفهم وأمر بسجن عدد كبير من رجالهم، وصادر كل خيولهم التي قدرت بحوالي ١٤٠ فرساً، وطلب منهم دفع غرامة نقدية وعينية. قدم الأمير «فيصل» جزءاً من تلك الغرامة إلى جماعة «البرية» فديه عن الرجال الذين سقطوا منها.

وفي شهر آذار من العام التالي (١٨٦٠) جاء دور «العجمان» لتتلقى

غضب الأمير «فيصل» بسبب إغارتهم على ماشيته وجماله في إحدى المراعي. وكان زعيم قبيلة «العجمان» أثناء تلك الإغارة شخص يدعى «راكان بن حثلين» الذي خلف والده «فلاح» بعد أن قتل في «الهفوف» إثر الغارة الكبيرة التي شنها على أحد قوافل الحجاج. والجدير بالذكر أن الأمير «فيصل» ثبت «راكان» في الإمارة بعد أن قدم الضمانات والتعهدات المشددة بأن لا تقوم قبيلته بمثل تلك الانتهاكات، لكن إثر هذه الغارة التي تمت بموافقته الشخصية، فر «راكان» إلى «الصبيحية» الواقعة في الأراضي الكويتية، فما كان من الأمير «فيصل» إلا أن أعلن الجهاد وكلف «عبد الله» بقيادة القوات وأنزل العقوبة بهم.

تجمعت القوات السعودية عند آبار «الدجاني» ومن سار بها «عبد الله» إلى «الوافرا» وهاجم جماعات «العجمان» ليلاً على حين غرة وألحق بهم هزيمة فادحة واستولى على معظم ممتلكاتهم، وطاردت قواته الفارين حتى «الصبيحة» التي داهمها هي أيضا وفلول الفارين أمامه تتسارع للجوء إلى قوات «راكان» المعسكرة في منطقة «الجهرا» بالقرب من مدينة الكويت. نظم «عبد الله» قواته من جديد بالقرب من «ملح» التي قرر زعماء «العجمان» فيها مهاجمته وبالأسلوب الصحراوي التقليدي، أي بمعنى أن تتقدم قواتهم سبعة جمال يحمل كل واحد منها فتاة من أجمل نساء القبيلة، وذلك تشجيعاً لرجال قبيلتها وحثهم على الدفاع عن شرف وعرض القبيلة. ودارت المعركة في الثالث من نيسان عام ١٨٦٠ وقاتل الفريقان بضراوة وشجاعة وعزيمة، لكن رجال قبيلة «العجمان» لم تكن نداً لقوات «عبد الله»، وعندما بدأت كفة الميزان تميل لصالح قوات «عبدالله» تفرق مقاتلوا

العجمان وفروا في حالة فوضى واضطراب ولجأوا إلى الكويت للنجاة بأرواحهم.

توجه «عبد الله» بقواته إلى «الجهرا» ليحتل معسكر أعدائه وليوزع الغنائم بالطريقة المعتادة، وتذكر بعض الوثائق التاريخية أن جماعة «العجمان» خسروا سبعمائة قتيل. سر أهل «العراق» بأخبار انتصارات «عبد الله» كما سر بها أهالي «الرياض»، ذلك لأن الغارات التي شنها رجال «العجمان» على «الزبير» وعلى المناطق المجاورة «للبصرة» والتي تكررت مؤخراً سببت القلق لدى المسؤولين العرب والأتراك. أرسل والي «البصرة» كما أرسل أمير «الزبير»[1] وفودا إلى الأمير «عبد الله» وحملوهم الهدايا القيمة له مع التهاني القلبية بالإنجازات التي حققها.

استُقبل «عبد الله» استقبالاً شعبياً حافلاً بطولياً يليق به كالأبطال لدى عودته إلى الرياض، وكان قادة «العجمان» (الذين هزموا لكنهم لم يسحقوا تماماً) يتشاورون بخصوص ما يمكن أن يفعلوه مستقبلاً، وكان يدركون بأنه لا يمكنهم لوحدهم مواجهة حشود قوات «نجد»، لذلك قرروا أن يتحالفوا مع «المنتفق» لشن غزوات متواصلة على نطاق واسع، فقاموا خلال فصل خريف ذلك العام بشن غزوات وهجمات متكررة أنهكت مناطق «البصرة» و «الزبير» و «الكويت»، الأمر الذي اضطر معه «حبيب باشا» والي «البصرة» أن يفرض أمير «الزبير» بأن يجمع أكبر قوة ممكنة للتصدي لأعمال

(١) كان أمير الزبير في ذلك الوقت هو سليمان بن عبد الرزاق بن زهير.

انظر: ابن عيسى، عقد الدرر، ص ٣٤. (المعلق)

جماعات «العجمان». وقام «حبيب باشا» بنفسه بتقديم الأموال الضرورية والأسلحة والذخائر والمواد التموينية اللازمة لتجنيد القوات واستمرارها في القتال على أرض المعركة.

كانت أول خطوة قام بها قادة «العجمان» وخلفاؤهم هي غزو واحات نخيل شط العرب ومصادرة تمور ذلك الموسم للاستفادة منها في حملتهم المزمعة ضد «نجد». تقدمت قوات «الزبير» تدعمها القوات التركية والقوات التي تم تنظيمها من قبائل «نجد» ضد قبائل «عجمان» وأجبروها على التراجع من واحات النخيل والهروب باتجاه الصحراء. طاردتها القوات المهاجمة واشتبكت معها وتمكنت من هزيمتها وأجبرتها على التراجع مجدداً باتجاه «الجهرا» و «كويبدة» و «كابدة». ثم بدأ «حبيب باشا» يسعى إلى الانتقام من «المنتفق» الذين كانت لديهم أملاك كثيرة في ولايات البصرة، وهددهم بمصادرة أراضيهم وواحات نخيلهم، فدب الذعر بسبب هذا التهديد في قلب زعيمهم «ناصر بن راشد بن ثامر بن سعدون» وأرسل إلى الوالي رسالة ألقي فيها اللوم على جماعات «العجمان» حيال النشاطات والأعمال التي حدثت مؤخراً، وبرر في تلك الرسالة تصرف رجال قبيلته بقوله إنه غرر بهم في علاقتهم مع رجال «العجمان» الذين أوهموهم بالحصول على مراع لمواشيهم في مناطق «نجد». وبعد تبادل لعدد من الرسائل وافق «الباشا» على أن لا ينفذ تهديده ضد «المنتفق»، ولذلك تضاءل عدد جماعات «المنتفق» التي تدعم بشكل تام وكامل رجال قبائل «عجمان» إلى أن انتصر على عدد بسيط من رجال القبيلة الذين كانوا يخيمون إلى جانب الفارين من قبائل

(١) من قرى رماح في إمارة الرياض، وأيضاً توجد حفنه في هجر النفعه بمنطقة إمارة الدوادمي.

«العجمان» في المناطق المجاورة «للجهرا».

وعندما سمع الأمير «فيصل» بنوايا المتمردين وحلفائهم في الهجوم على «الكويت» ومناطق «نجد» نفسها، أعلن الجهاد المقدس للمرة الثانية وحشد المقاتلين من القرى والمناطق عند موارد مياه «الحفنة»(*) في مجرى «العرمة». وصل «فيصل» إلى هناك في أواخر شهر آذار عام ١٨٦١ ليتولى تلك القوات. تحرك «عبد الله» بتلك القوة عن طريق «الوفرة» حيث انضمت إلى قواته جماعات مقاتلة من «مطير» و «بني هاجر»، وتابع المسير ووصل إلى «الجهرا» ومن هناك شن هجوماً عند الفجر على خصومه المتحالفين، ومرة ثاني منيت قوات «العجمان» بالهزيمة المحققة وطارتهم حتى بلغوا مياه البحر وجرفهم المد العالي أثناء رجوعه إلى البحر. دارت تلك المعركة في شهر رمضان، كما دارت معركة «الوفرة» التي حدثت قبل عام من تاريخ هذه المعركة، واستولت قوات الأمير «عبد الله» على الكثير من الغنائم، وسر أهالي «البصرة» و «الزبير» من الانتصار الذي حققته القوات السعودية وأعربوا عن تقديرهم لبسالة الأمير «عبد الله» بأن قدموا له الهدايا التي تليق بالأمراء.

وبالمناسبة نقول إن «محمد بن فيصل» الذي رافق أخاه «عبد الله» في تلك الحملة أبلى بلاءً حسناً في طريق العودة إلى الرياض، إذ تمكن من قتل «حمدي بن سقيان» زعيم قبيلة «مطير» البارز، وذلك في الغارة التي شنها «عبد الله» على جماعات من قبيلة «مطير» كانت تخيم في منطقة «المنسف» بالقرب من «الزلفي». كان ذلك الحدث مجرد مقدمة أو تمهيد لغزو «لقصيم» وفعلاً توجه «عبد الله» بقواته إلى هناك وأقام معسكره في منطقة

«روضة الربيعي»، وأحدث تقدم هذه القوة الكبيرة الرعب في قلب «عبدالعزيز المحمد» حاكم «بريدة» فهرب مذعوراً إلى «عنيزة» مع أبنائه الثلاثة ومعه مجموعة من خدمة وعدداً من أتباعه، لكنه لم يلقى أي ترحيب في «عنيزة»، الأمر الذي اضطره إلى مواصلة الهروب باتجاه «مكة». وعندما علم «عبد الله» بهروبه إلى «مكة» أرسل على الفور قوة بقيادة أخيه «محمد» لمطاردة «عبد العزيز المحمد»، وتمكنت تلك القوة من اللحاق به عند آبار «الشقيقة» فقامت بذبحه وذبح أبنائه الثلاثة وذبح أحد أبناء عمومته، إضافة إلى عبدين من عبيدة الخاصين. هذا وسمحوا للباقين ممن كانوا برفقته بالتوجه حسب وجهتهم بسلام. توجه في تلك الأثناء الأمير «عبد الله» إلى «بريدة» لينصب عليها حاكماً جديداً يدعى «عبد الرحمن بن إبراهيم» (من منطقة منفوحة). والجدير بالذكر أن الحاكم الجديد سبق أن كان قائد الحملة التي نظمت ضد القصيم بعد أن تم خلع «جلوي» عام ١٨٥٤، كما أنه كان الشخص الذي أشرف على تدمير قصور «عبد العزيز» وأبناؤه.

عندما سمح الأمير «فيصل» لعبد العزيز الحميد بأن يتولى منصب حاكم بريدة، كان «فيصل» قد احتجز واحداً من أبناء «عبد العزيز المحمد» كرهينة في الرياض لضمان حسن سلوكه. وتجدر الإشارة أيضاً أن ابن «عبد العزيز المحمد» كان مرافقاً لـ «عبد الله» في حملته التي شنها ضد «العجمان»، وكان معه أيضاً في الربيعية حين قتل والده وإخوانه، وبقي مع تلك القوة في طريق عودتها إلى الرياض إلا أنه انسل وهرب قبل وصولها إلى الرياض، لكن القوات السعودية طارته وأسرته في الصحراء وأرسلته إلى أحد السجون في القطيف، وبقي هناك إلى أن داهمته المنية، وانتهى بموته «فخذ» من أفخاذ

أسرة معروفة وعريقة، إلا أن ذلك الفخذ كان يتميز بالغدر وعدم الولاء. والجدير بالذكر أن أمراء «آل سعود» عاملوا هذه الأسرة بكل تقدير واحترام، لكنها كثيراً ما خانت تلك المعاملة الحسنة.

قام «طلال بن رشيد» بزيارة «عبد الله» أثناء إقامته في «بريدة»، علماً بأنه لم يسبق له أن شارك في الحملة ضد قبائل «العجمان»، إلا أنه الآن قد أحضر معه عدداً من المقاتلين ربما تستدعي الحاجة في «القصيم» إليهم. ولا بد أن تكون الإهانة التي لحقت بعدوه القديم في «بريدة» قد أثلجت صدره، لكن ولاء منطقته للحكومة المركزية تقف على النقيض تماماً من جيشان الخيانة المتواترة التي تحدث في «القصيم». لم ينقضي عام ١٨٦١ حتى عاد ميدان التناحر في الصحراء العربية إلى المخاض من جديد، فكانت وفاة أمير منطقة الأحساء «أحمد السدير» في بداية هذا العام خسارة فادحة للأمير «فيصل» الذي تقدم به العمر. خلف «أحمد السديري» في منصبه وبشكل مؤقت ابنه «محمد بن أحمد» الذي كانت له خبرة سابقة بذلك الإقليم، إلا أن الأحداث في منطقة «القصيم» اقتضت بتعيينه أميراً على «بريدة». وعند حوالي نهاية عام ١٨٦٣ وبسبب إلحاح أهالي «الأحساء» وافق «فيصل» على أن يرسل «محمد بن أحمد السديري» إلى «الأحساء» مرة أخرى كأمير فعلي على ذلك الإقليم.

وفي شهر شباط من عام ١٨٦٢ ولسبب غير معروف تمرد أهالي «عنيزة» ومن المحتمل أن يعزى سبب ذلك التمرد إلى السياسة التي نهجها «عبدالرحمن بن إبراهيم» الذي كان قد عين حاكماً على بريدة. وكانت ردة فعل الأمير «فيصل» الفورية على ذلك التمرد أن أعطى البدو الحرية المطلقة

في مهاجمة وسلب خيرات «عنيزة» والمناطق المجاورة لها. وفي تلك الأثناء نظم «فيصل» قوة ليقودها «صالح بن شلهوب» باتجاه «بريدة» لمساعدة «عبدالرحمن بن إبراهيم» في العمليات التي كان يقوم بها ضد المتمردين في المدن. وفي شهر نيسان تمكنت تلك القوة من الاستيلاء على أعداد كبيرة من الجمال والأغنام التي كانت ترعى في مراعي عنيزة والمناطق المجاورة لها، إلا أن أهالي «عنيزة» أبدوا كل ما يمكنهم من مقاومة وتمكنوا في هجماتهم المتكررة من أن يوقفوا هجوم قوات «صالح بن شلهوب». وفي حوالي تلك الفترة وبالتحديد في شهر آيار عاد «محمد بن غانم» من «المدينة» إلى «القصيم». والجدير بالذكر أن «محمد بن غانم» هذا هو أحد الذين شاركوا في اغتيال «عبد الله بن عدوان» وأيضاً اغتيال الذي خلفه في الحكم لفترة قصيرة على إمارة «بريدة»، وعلى ما يبدو كان «محمد بن غانم» خلال فترة حكم «ابن عدوان» يعيش طوعاً في المنفى بعيداً عن «بريدة». وكونه من أبناء عائلة «العليان» التي تطمح إلى الحكم أو إمارة «بريدة»، تحالف «محمد بن غانم» مع المتمردين من مدينة «عنيزة» وشجعهم على مهاجمة المدينة المنافسة لهم، وبالفعل تمكنوا تحت جنح الظلام من التسلل إلى المدينة، إلا أنهم فشلوا في تحقيق أي تقدم في هجومهم على القلعة التي كان «ابن إبراهيم» مستحكماً فيها تدعمه قوات «صالح بن شلهوب». وفشلوا أيضاً في اقتحام معاقل عائلة «أبا الخيل» المحصنة. وعندما علم أهالي «بريدة» بأمر ما كان يجري هرعوا إلى الشوارع وصدوا الغزاة وأنزلوا بهم خسائر فادحة.

إثر ذلك الحدث أرسل الأمير «فيصل» تعزيزات قوية إلى «بريدة» للمساعدة في ممارسة الضغط على «عنيزة» علماً بأن أهالي «عنيزة» هم مَن

بادر في مهاجمة المدافعين وإلحاق الهزيمة بهم في ديرتهم القريبة من واحات نخيل «رواق»، وكان من بين الذين أصيبوا بإصابات مميتة «عبد الله بن عبدالعزيز الدغيثر» القائد المكلف بقيادة التعزيزات التي وصلت مؤخراً بأمر من الأمير «فيصل».

إن فشل «ابن إبراهيم» المتكرر في ضبط المتمردين والسيطرة عليهم أثار حنق وغضب الأمير «فيصل» فاستدعاه ووبخه وأمر بمصادرة كل ممتلكاته في «بريدة»، وعلى إثر ذلك بقي «صالح بن شلهوب» قائداً على القوة العسكرية هناك.

وبعد استراحة الصيف التي استمرت فيها الأزمات دون قيام أي فريق بنشاطات مجدية، قرر الأمير «فيصل» اتخاذ إجراءات أكثر حدة وصرامة. ففي فصل الخريف حشد قواته من جديد وأرسلها إلى «القصيم» تحت قيادة ابنه «محمد»، وانضمت إلى تلك القوة جماعات ليست فقط من «سدير» و«الوشم»، بل من جماعات أخرى كبيرة من قوات «حائل» تحت قيادة «عبيد بن رشيد» الذي كان يرافقه ابن أخيه «محمد بن عبد الله» الشخص الذي كان قدره أن يصبح شخصية بارزة في الصحراء العربية.

انطلقت هذه القوات الكبيرة التي كانت متجمعة في «بريدة» باتجاه مواقع العدو في «عنيزة»، إلا أنها اشتبكت مع قوة متقدمة من المتمردين في منطقة وادي «الرّمة» التي تشكل تقريباً نقطة الحدود بين أراضي «عنيزة» وأراضي «بريدة»، وهناك هزم المتمردين ومنيوا ببعض الخسائر، وعسكر «محمد» بقواته في وادي «الرّمة» وأخذ يشرف على قواته وهي تقطع أشجار النخيل في الواحات، لكن حدث في العاشر من كانون الأول أن قام الأهالي بهجوم

مضاد على قوات «محمد» ودارت معركة شرسة تمكن الأهالي فيها من طرد قوات «محمد» من الواحات وأجبروها على العودة إلى خيامها بالقرب من «الجسر»، لكن المطر الغزير الذي هطل في تلك الأثناء أصاب البارود الذي كان بحوزتهم بالرطوبة ومنعهم أيضا من حمل الغنائم إلى بيوتهم. وهنا قامت قوات «محمد» بهجوم مضاد قوي وأوقعت خسائر جسيمة في الأرواح بين الأهالي تقدر بأربعمائة قتيل، وهرب من كتبت له الحياة. وتقوقع المتمردون في ديارهم وانضمت إلى قوات «محمد» تعزيزات زادت من قوته، وكانت تلك التعزيزات تحت إمرة «طلال بن رشيد» التي أتت من «حائل» بكامل عدتها. إضافة إلى ذلك أرسل «فيصل» في شهر كانون الثاني عام ١٨٦٣ ابنه «عبد الله» على رأس قوات من «الأحساء» وإلى جانبها قوات احتياطية من مناطق أخرى، وأرسل معه بعض الأسلحة والمدافع وأصبحت عنيزة الآن محاصرة كلياً، وتعرضت يوماً بعد يوم لقصف متواصل وعنيف إلى أن بدأ المحاصرون يستغيثون طلباً للسلام.

والحقيقة أن «فيصل» كان قد أعلم ابنه «عبد الله» بأن يقبل أية مبادرة استسلام يقوم بها المتمردون، شريطة أن يسلم الأمير «عبد الله بن يحيى» نفسه ويأتي طائعاً إلى الرياض ليعرب عن استسلامه وخضوعه شخصياً لـ«فيصل». وعلى هذا الأساس تمت ترتيبات السلام ووقف الأمير المتمرد بين يدي «فيصل» يطلب منه العفو والسماح، وفعلاً صفح عنه «فيصل» وسمح له بالعودة إلى ديرته وأسند إلى «محمد السديري» منصب أمير «بريدة» وعينه حاكماً عاماً على كل مناطق «القصيم». لكن وكما أشرنا آنفاً، لم يمضي وقت طويل حتى قام الأمير «فيصل» باستدعاء «محمد

السديري» وعينه أميراً على الأحساء، وكلف «سليمان الراشد» (وهو أحد أبناء عائلة العليان) بأن يكون أميراً على إمارة «بريدة»، لكن هذا التعيين أحدث المزيد من المشكلات في البلدة، إذ سرعان ما قام «فيصل» بعزل «سليمان» من منصبه وعين مكانه «مهنا الصالح» وهو من أسرة «أبا الخيل» لأسرة «سليمان الرشيد».

وفي الجزء الأخير من عام ١٨٦٣ مات الخديوي «سعيد باشا» في مصر وخلفه في ذلك المنصب «إسماعيل باشا» وهو أيضاً أحد أبناء «محمد علي الباشا الكبير». شهدت فترة حكم «إسماعيل باشا» أعمال شق قناة السويس، إضافة إلى متغيرات أخرى مهمة فتحت الأبواب أمام احتلال البلاد. وحدث أيضاً في الفترة نفسها أن مات أحد كبار مشايخ قبيلة عتيبة والمدعو «تركي بن حميد». وفي خريف عام ١٨٦٤ كان «عبد الله» في طريقه إلى الحرب في إقليم «الأحساء» حيث أغار على العديد من القبائل، وبالصدفة داهم تجمعاً لرجال قبائل «العجمان» وألحق بهم خسائر فادحة. تلت فترة تمرد «عنيزة» فترة هدوء وسلام نسبي دامت لمدة اثني عشر شهراً، حدث خلالها أن توفي الشيخ المشهور «عبد الله أبو بطين» (المولود في روضة سدير في نوفمبر من عام ١٧٧٩). بلغ الشيخ «عبد الله» (عند وفاته في بلدة شقراء) خمسة وثمانون عاماً، وأول منصب ديني تسلمه الشيخ «عبد الله» كان منصب قاضي الطائف الذي كان قد عينه فيه الإمام سعود عام ١٨٠٥ بعد فتحه لمناطق الحجاز. وإثر طرد «جلوي» من «عنيزة» تقاعد الشيخ «عبدالله» في عام ١٨٥٥ بعد أن مارس سنوات عديدة من العمل في ذلك

المنصب، وعاش حياته الخاصة إلى أن وافته المنية.

إنه من الملفت للنظر أن المؤرخ «ابن عيسى» لم يذكر شيئاً عن الزيارة التي قام بها في الخليج المقيم البريطاني الكولونيل «لويس بيللي» إلى الرياض عام ١٨٦٥[١]. ففي الربيع من ذلك العام قدم بيللي إلى الرياض لإجراء محادثات مع الأمير «فيصل». هذا وليس من الغريب أن يلزم «ابن عيسى» الصمت حيال الزيارة التي قام بها «وليام غيفورد بلغريف» قبل عامين من ذلك إلى العاصمة السعودية (الرياض)، لقد كان من المثير أن نعرف بعض الشيء عن ردود فعل السعوديين لمثل تلك اللقاءات فيما لو تحدث عنها ابن عيسى. ولعل أبرز الآثار التي أسفرت عن الزيارة التي قام بها «لويس بيللي» توقيع اتفاق عربي وإنجليزي لم يعثر لنصه المخطوط على أي أثر في أرشيف ديوان السلطة السعودية. وقد وقعت تلك الاتفاقية خلال السنة الأخيرة من فترة حكم الإمام «فيصل».

كما سجل بيللي من خلال رحلته رصداً دقيقاً للأحوال التي كانت سائدة في أواخر أيام «فيصل» حيث أوكل «فيصل» ولعدة سنوات إلى ابنه «عبد الله» مهام الأمور الحيوية، وخاصة مهمة توجيه العمليات العسكرية التي كانت قائمة بشكل مستمر خلال فترة حكمه. وكان في بعض الأحيان يشرك ابنه الثاني «محمد» في بعض المهام التي يوكلها إلى «عبد الله»، علماً بأنه كان يبقي السلطة العليا في يده ويبدو أنه لم يخطر على باله أبداً أن يفكر في التخلي عن

(١) يمكن الاطلاع على ترجمة لبيللي مع بيان لرحلته وأغراضها ومسيرتها من خلال التقرير المفصل الذي كتبه بيللي عن رحلته وقام بإلقائه ونشره في عدد من المنتديات العلمية البريطانية، وقد ترجم التقرير (أو الرحلة) من قبل الدكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ والدكتور عويضة بن شريك الجهني ونشرته جامعة الملك سعود عام ١٤١١هـ. (المعلق).

العرش. وعلى أي حال يبدو وبوضوح أن صحته كانت تتردى خلال السنوات الأخيرة من عمره، واستمر الأمر كذلك إلى أن داهمته المنية في الثاني من شهر كانون الأول عام ١٨٦٥. توفي الأمير «فيصل» بعد فترة حكم دامت ٣١ عاماً تخللتها فترة خمس سنوات كانت البلاد خلالها خالية من حكم أو سلطة فعلية حين كان الأمير «فيصل» خلالها أسيراً في مصر.

obeikandl.com